

فنى الإسلام المعاصر



هادى العلوى

العربية كما يجبها هادى

اعتاد المفكر العراقي الراحل «هادى العلوى» أن يكتب اللغة العربية بطريقته الخاصة جدا، أى كما خطر له، وكما يستريح لها، سواء جاء هذا التعبير عربيا فصيحاً أو عامياً بلهجة العراق التى ولد بها وعاش فيها صباه وشبابه، أو بلهجة الشام التى قضى جل عمره الفكرى. ومن قبل كنا قد طلبنا من العلوى أن يكتب لنا عن «الرازى» الذى يتميز هو - أى العلوى - بوجهة نظر خاصة به و مميزة عنه، ونشأت لنا مشكلة التلقى فقد خفنا أن يعرض قراؤنا عن استكمال الموضوع المهم بسبب غرابة اللغة فقمنا بتصحيحها وغضب «العلوى» غضبا شديدا حتى أننا امتنعنا لفترة عن طلب موضوعات أخرى منه رغم حرصنا الشديد على وجوده على صفحات «أدب ونقد».

والآن وقد رحل «هادى العلوى» فإننا لا نملك إلا أن ننشر نصه كما كتبه، فلا يجوز أخلاقيا أن نفعل ما كان يغضبه وهو الآن عاجز عن التعبير عن غضبه أو الدخول فى جدل حول فلسفته التى رأى هو أنه يضع أسسها موضع التطبيق حين كان يكتب بهذه الطريقة. لكن وللأسف الشديد فإننا لم نعثر على نص ما حوله يشرح لنا فيه هذه الفلسفة التى قد يقبلها البعض ويرفضها الآخرون. وقد حاولنا كثيرا أن نستخلص بعض الأسس من الكتابة نفسها لكننا أخفقنا، وإن كانت فكرة «العلوى» الرئيسية واضحة كل الوضوح: ألا وهى أن تحجرى كتابة اللغة العربية كما يتكلمها الناس فى حياتهم اليومية. وهنا تبرز مشكلة أخرى: فأى لغة يومية هى تلك التى ستتوافق عليها ونكتب بها، هل هى لغة المصريين أم العراقيين أم الشوام أو المغاربة أم الجزائريين؟ فهل يا ترى كان العلوى يرى فى الأفق عدة لغات يمكن أن تخرج من رحم العربية الأم، كما كان الحال مع اللغة اللاتينية التى ولدت منها الفرنسية والإيطالية والأسبانية؟

إنه لم يقل لنا ذلك، وهو لم يقل لنا أيضا ما هو الأثر الذى سترتب على تنمية مثل هذا الاتجاه على المشروع المستقبلى للوحدة القومية العربية. صحيح أن اختلاف هذه اللغات التى خرجت من رحم اللاتينية لم يمنع الأوروبيين من نسج الوحدة الأوروبية على مهل منذ عام ١٩٤٨ حتى خرجت أخيرا العملة الموحدة «اليورو» وأوشكت أوروبا أن تصبح القوة الكبرى الثانية فى العالم.

لكن الوضع والسياق العربيين يختلفان كلية، وقد اعتاد العرب فى المشرق والمغرب كما فى المنافى أن يتواصلوا عن طريق الفصحى التى توافقوا حولها واعتادوا قراءتها على هذا النحو حتى تصبح كتابة هادى العلوى هى الغريبة وليس الكتابة الفصحى كما عرفها، لأن العربى اعتاد الأليتين الفصحى والعامية، وعرف كيف يفرق بينهما ذهنا ونطقا. لذا سوف يجد القارئ لها النص البالغ الأهمية صعوبة فى قراءته لكل هذه الأسباب التى أضيف إليها سبب أخير: أنها بلا قاعدة على الإطلاق يمكن أن يتدرب عليها القارئ منذ البداية ثم يعتادها بعد ذلك.. فعذرا لأننا حرصا على احترامنا لرغبة المفكر الراحل واختياره لم نصح لفته كما فعلنا من قبل.

وعلى كل حال فإننا نعرف الآن مدى حاجة اللغة العربية للتطوير نحو صرفا ونطقا.

فريدة النقاش



«بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا»

(حديث نبوي)

الإسلام كدين سماوي يتكامل مع صورة التقليد اليهمسيحي الذي يندمج فيه محورا بمعطيات وفروض تاريخه الخاص به. وهو باندماجه في هذه الصورة يستحق أن يحمل مركبها الكامل الذي سبق لى نحتته بهذا المصطلح: «يَهْمَسْلامى».. على أنه يزيد في مقومات نشأته تلك العناصر التى استمدتها من جغرافيته الحضارية فى دائرتها الأضيق. أعنى: المجتمع الجاهلى.. وفى مسيرته الانقطاعية التالية التى أدارها الأمويون يكون الإسلام قد أضاف إلى مصادره الأصيلية بعض الخصال من المجتمعين الساسانى والبيزنطى المجاورين له.. وعلاوة على هذا تبقى لدينا فسحة من القول نضع بها الإسلام فى المحيط الأوسع لدورة حضارة بدأت مع فجر التاريخ مابين وادى الرافدين ووادى النيل. ورث الإسلام من اليهودية تقديسها للتجارة والملكية الخاصة، التى اعتمد عليها فى بناء مدنيته، لكنه ضم بين جوانحه مصدرين آخرين للقيم هما: العصر الجاهلى وأنجيل يسوع الأربعة. ويمكننا بالتالى تصور العصور الإسلامية فى جملتها كعصور للتخاصم بين هذه العناصر المتناحرة: اليهودى والجاهلى واليسوعى. وكانت السلطة فى يد الأول الذى بنى المدنية الإسلامية مُراعيا بها القيم الجاهلية واليسوعية معا. لكن الإسلام واصل فى الوقت نفسه ممارسة القيم المغلوبة فى خطوط أخرى بعيدة عن خط السلطة عاشت فى تنازع مع هذا الخط دون أن يتمكن خط من شطب الآخر: القيم لم

تصل إلى الحكم إلا فى برهات استثنائية. والمالك المسلم من جهته لم يوفق رغم إمساكه بالدولة إلى احتكار حركة التاريخ بحيث يصل إلينا تراث الإسلام مصيوغا بيد واحدة هى يد التاجر القرشى. وكان للقيم الجاهلية واليسوعية حضورها الفاعل فى جميع زوايا العصور الإسلامية، التى أرجع أنها انتهت فى غضون القرن التاسع الهجرى، حيث توقفت المدنية الإسلامية، ومعها الحضارة الإسلامية عن التطور، ودخل العالم الإسلامى فى استعصائه الذى لا يزال فيه حتى اليوم.. وقد انقرض الإسلام كمدنية وكحضارة، وبقي الدين الإسلامى. بالطبع فانقراض الحضارة لا يحوها وإنما يحولها إلى تراث. والتراث من الإرث، الذى يعنى موت المورث، مع بقاء ميراثه، بحكم أن الموت انقطاع عن الحياة وليس عن الوجود. ولما كانت الحضارة الإسلامية قد وجدت فالعدم لا يسرى عليها، لكنها ماتت فخلفت لنا هذا الإرث الواسع. وليس الدين الإسلامى من موروثات هذه الحضارة لأنه الآن حى. والدين بجوهره مباين للحضارة فهو يعيش معها وبدونها.

خلف لنا الإسلام بعد انقراضه أشياء بعضها يعيش فى الذاكرة وبعضها فى البيئة والثالث فى الكتب:

ما يعيش من التراث فى الذاكرة يعيش بفعل التنشئة التى يخضع لها الفرد من يوم ولادته حتى اكتمال نضجه الذهني. ولا تشترط التنشئة التعليم بالكتابة لأن الأمى يتساوى فيها مع المتعلم بحكم نشأتهم فى وضع عائلى واحد وخضوعهم معا لثقافة شفوية واحدة. وقد يزيد المتعلم على ما فى الذاكرة بمضمومات مأخوذة من الكتب، وهى المستودع الأوسع للتراث، فتكون حصته من الذكريات أكبر. أما البيئة فهى مشبعة بالتقاليد والأعراف التى يتحدد بها نمط حياة العربى والمسلم. والشرط الأوفر من هذه جاء من الإسلام أو عبر الإسلام. ولا ننسى هنا بديهية أن أيا من هذه التقاليد والأعراف لم يصل إلينا بشخصه وحرفيته، لأنها تتغير حتى ضمن قالبها المحتجزة فيه. وحين تتناقل الأجيال موروثات واحدة فهى تحورها كثيرا أو قليلا تحت أوضاعها ومستجداتها الحياتية فلا يبقى الموروث كما تركه المورث من دون مساس، بل تكون للوارث يد فى تطويره نحو الأرقى أو الانتكاس به إلى حالة متخلفة عن الأصل.

إن الإسلام الميث يعيش بواسطة موروثاته، ومحيط هذه الموروثات واسع، ومتنوع، ومناطق خلاف فى التقويم. وعندما نأخذ الإسلام فى مجموع تجاربه فلا بد من قبول التعارض فى القيم التى خلقها. وتجارب الإسلام ليست ما يدعيه كل فريق لنفسه بوصفه الإسلام، وما عداه هو الكفر، بل هو مجموع ما يدعيه الفرقاء كلهم. إن نبوة محمد إسلام، وخلافة الراشدين إسلام. لكن الإسلام أيضا هو الأمويون والعباسيون، كما هو الفرق التى خرجت عليهم وحاربتهم بالفكر والسلاح.

والإسلام هو التجارة والملكية الخاصة التى قامت عليها دولته منذ البدء، وهو أيضا تلك المبادئ المشاعية التى استمرت من يسوع ثم نضجت وتطورت على أيدي مفكرين كالمعري وأقطاب الصوفية، وسياسيين كالقرامطة. والإسلام هو الفقه الذى توارد على كتابته الفقهاء على اختلاف مذاهبهم واجتهاداتهم، والذى تتكرس فيه تناقضات الإسلام الاجتماعية وتباين مصادره والتأثيرات الخارجية التى تعاقبت عليه. والإسلام الميث معقد، بقدر ما الإسلام الحى سهل. لأن الدين إذا حصرناه فى

مقوماته الأصلية التي يتشخص بها جوهره لا يكون موضع نزاع شديد كما يكون تاريخ الحضارة وتراثها المتراكم الأطراف. وما سيهمننا في مقامنا هذا هو شواخص الإسلام الميت التي تعيش بيننا لتكون محور بحث وتقويم من حيث هي، ومن حيث ما تحمله من معايير وما تحدّثه من آثار ضارة أو نافعة ومواقف الفئات المختلفة في ضوءها، ما دمنا نريد أن نتصور ما سيكون عليه الإسلام أو ما نريده أن يكون في حياتنا الحاضرة.

تحدث فيلسوف التاريخ أرنولد توينبي عما يقدمه الإسلام للعالم الحديث فجعله في تحريم الخمر ومكافحة العنصرية. والخمر معضلة في الغرب، الذي تتخرب حياته بالعديد من مضادات التحضر. أما العنصرية فمن لوازم التكوين النفسى للغربيين المعاصرين الذين بنوا مدنيّتهم على أجساد الأفارقة والهنود الحمر. واهتمام توينبي بها ناشئ عن تكوينه الإنسانى كمثقف متنور. وفي الحالتين لا يقدم الإسلام للمسلمين حلول منشودة لأنهم لا يعانون من هاتين الآفتين. والحقيقة أن آسيا كلها لا تعاني منهما، فنسبة السكّيرين في اليابان، الدولة الرأسمالية والمنافسة لدول الغرب، لا تشكل شيئا أمام نسبتها المتفاقمة في أوروبا وأمريكا. أما الصين فلم يكن فيها سكير قبل سياسة الانفتاح الأخيرة على الغرب. ولا تزال النسبة ضئيلة ولا تؤلف معضلة. وفيما يخص العنصرية لم تعرف آسيا، بما فيها آسيا المسلمة، ذلك اللون الثقيل من الاضطهاد العنصرى الذى تعودته أوروبا وأمريكا بحق الملونين.

إن معضلتنا التي لم يعرفها توينبي، هي الطائفية، وهي محور الاحتراب في آسيا كلها. وفيما يخص الإسلام تفعل الطائفية في ساحتين، داخلية/ بين المسلمين، وبرانية/ ضد الأقليات الدينية. والطائفية مشكلة لازمة للدين، تبقى مع بقائه، إذ يستحيل على أكثرية دينية لها السيادة في الدولة والمجتمع أن لا تضطهد بشكل من الأشكال أضعافا من الأقليات. ويكذب كل صاحب عقيدة يدعى أنه يحترم ضده العقائدى، لأن الإيمان ليس مسألة عقلية، بل عاطفية. وكان الإسلام قد حل مشكلة تعدد الأديان في مجتمعه عن طريق عقد الذمة لغير المسلمين. وهو اعتراف مبكر بحرية الأديان، لكنه مبتور، لأن الحقوق التي أعطيت للذمى كانت أقل مما أعطى للمسلم، كما أن الذمى بقى منظورا إليه كمارق مستحق لغضب الله.

وقد اشتد اضطهاد المسلمين لغيرهم، لاسيما المسيحيين واليهود منذ خلافة المتوكل وكذلك ويدا من العهد نفسه الاضطهاد المتقابل بين السنة والشيعة، وبين المذاهب السنية نفسها كما بين الفرق الشيعية. أما المذاهب فظهرت في الأوان العثماني. وقد ارتكب الأتراك مذابح ضد الشيعة في الأناضول ذهب فيها عشرات الألوف، وذبح الفرس الصفويون أهل السنة في العراق. وختم العثمانيون، بمن فيهم/ ولاسيما/ قادة الاتحاد والترقى بذبح مليون ونصف مليون أرمنى. وقد جرت المذبحة بمشاركة الأكراد. ومعروف تذابح الدروز والموارنة في جبل لبنان في القرن التاسع عشر. إن الطائفية كما قلنا من لوازم الدين، ومع أنها في الأصل منتج شرقي فقد عرفها الغرب المسيحي مع الشرق العديد الأديان. وكان ضحاياها في الغرب من اليهود، دون أن نهمل مذابح الأسبان للمسلمين بعد استرجاع الأندلس. كما تذابح الكاثوليك والبروتستانت، ومايزالون يتذابحون في أيرلندا الشمالية. على أن التذابح الطائفي انحسر في الغرب مع انتهاء الحرب العالمية الثانية (من

دون أن يتوافر ضمان أكيد أنه لن يعود).. أما في الشرق فالتأنيدي في صعود متواصل، وتسهم في تأجيحها المخابرات الأمريكية التي تتغلغل في أحشاء العالم الثالث وتصنع له الكثير من أقداره. ويدلّي الإسلام هنا بدلوه شأن أي دين سائد في محيطه. ويتزايد ضرره مع المد السلفي الراهن.. وأحدث جولاته ما يفعله السلفيون المصريون بالأقباط مما لا نظير له في مصر الحديثة/ دون أن نهمل اليد الأمريكية في هذه الجولة.

ثمت عقدة خطيرة أخرى ناتجة عن الإسلام تتمثل فيما سمّيته من قبل «وجدان قمعي» للجماهير المسلمة. إن الدين بقيامه على الإيمان هو من مقومات الشخصية القمعية. ومع أن القمع لا يشترط الدين، فأسبابه (القمع) ودواعيه متنوعة، فإن الدين يستدعي القمع. وكان الشيخ خالد محمد خالد قد توصل في مؤلفاته المبكرة إلى حقيقة أن الحاكم الديني يكون قمعي بطبيعته. وضرب عليه مثل من الحجاج بن يوسف الثقفي، والحجاج لم يكن «حاكم ديني»، ولعل الكاتب أراد أنه «متدين». استنتاجا من السيرة الشخصية لهذا الجلاد المتفرد. وقد رصدت الحكام الأشد قمعا في تاريخ الإسلام فوجدتهم في جملتهم من المتدينين. ومن المفارقة الظاهرة أن نجد دليل عليه في أبو بكر، الخليفة الأول الذي صدر عن شخصية دينية شديدة التزمّت، ولكن مع استعداد للتنكيل بالخصوم انفلت من عقاله في حروب الردة/ إذ لم يكن في غيرها ممكن أمام اللقاحية الجاهلية/. وعلى العكس منه كان عمر بن الخطاب، الذي لم يشتمل على قلب ديني وعارض إجراءات أبو بكر وتصرفات خالد بن الوليد في حروب الردة. وكان يتوجس من القتل ويشدد في النهي عن التعذيب. وقد أنقذ من القتل أعدادا كبيرة من أسرى المرتدين كان أبو بكر قد أمر بقتلهم.

ويفاقم من قمعية الشخصية الدينية للمسلم قانون العقوبات الإسلامي، المستمد من شريعة موسى، المستمدة بدورها من شريعة حمورابي. وكانت شريعة حمورابي قد وُجدت في عصر استدعاها حتى تسجل بداية انتقال المجتمع البشري من الفوضى إلى حكم القانون. وقسوة عقوباتها ناتجة عن عصرها حيث تصور المشرعون الأوائل أن الوسيلة الوحيدة لتقويم الإنسان هي التنكيل به. وشريعة موسى جاءت بعد حمورابي بحوالي الألف عام، والشريعة الإسلامية بعد موسى بأكثر من ذلك، لكنها لم تتطور عن الأولى في هذا الجانب كثيرا، سوى أن الأخيرة قلصت من الجرائم التي تخضع للعقوبات الجسدية.

وإذا وقفنا عند النص القرآني فإن هذه العقوبات تقتصر على السرقة وقطع الطريق والزنا. والعقوبة على الأخير بالجلد، ولم ينص القرآن على الرجم. لكن الفكر الديني توسع في الكلام عن العقوبات وضرورتها وكون غضب الله يسبق رحمته. وهو ما سعى الفكر الصوفي إلى عكسه بتقديم صفات الجمال على صفات الجلال، لكن دون جدوى، لأن نطاق عمل الفكر الديني أوسع ولغته أقرب إلى فهم العامة من لغة المتصوفة. وقد ساعد تسويغ العقوبة دينيا على تقبلها من الجمهور كأمر إلهي لا يتطرق الشك إلى عدالته. وهكذا تضافر الإيمان الديني مع العقوبات الدينية مع دوغما «أسبقية الغضب على الرحمة» في تربية وجدان قمعي لدى العموم كان يوفر على الدوام ولا يزال الوسط الملائم لنمو الشخصية القمعية، سواء في علاقة الدولة بالناس، أم في علاقات الناس ببعضهم.

ومن العسير علاج هذه العلة بالعلمنة، لأنها صارت من علل السيكلوجيا. وقد فعلت في ساحة

السياسة العلمانية كفعلها فى ساحة العمل الدينى وكشفت عن نفسها فى القمع المتقابل بين القوى السياسية المختلفة فى شتى أقطارنا. ولم يسلم منها إلا من عصم الله من القليل الذين لا يُعتد بفعلهم: لقد أيد جميع المثقفين المصريين إعدام زميلهم سيد قطب، الذى كان بدوره سيعدهم لو وقعوا تحت سلطانه. وأيد القوميون فى سوريا والعراق إعدام معارضى دولتهم من اليساريين والسلفيين، وأيد اليساريون إعدام القوميين والسلفيين وأيد السلفيون إعدام القوميين واليساريين.. ولم يصدر عن مثقفيتهم وسياسيتهم استنكار للتنكيل إلا حين يكون موجه إلى جماعتهم. وهذا من النتائج المرة لحضور الدين فى وعينا الجمعى.

أوصل إلينا الإسلام، بعيدا عن هذه اللوازم الدينية، بعض الشواخص النافعة، ولنبدأ بتجربته فى معنى تشكيل الدولة.

كان العرب يعرفون من الدول إمبراطورية كسرى وقيصر، وفيها يتأجج غرار من السلطة لم يستوعبه العرب، وقاتلوه. وقد مرت بهم أيضا زبوة ملكية كانت عابرة ولو مؤثرة لما حاول النعمان بن المنذر توطيد حكم عربى يكابح التسلط الساسانى. ومع أنهم قاوموا الساسانيين وتأروا للنعمان منهم، فلم يقرروا الإذعان لسلطانه فى الحيرة. وفشل مشروعه الطموح بسبب ذلك.

فى الوقت نفسه، كان الجاهليون قد سمعوا بالنبوات من اليهود والنصارى، وتعرفوا إلى أشخاص زعماء أنبياء مثل موسى وعيسى نهجوا نهجا يختلف عما عرفوه من الملوك. ولما ظهر محمد فى يثرب كان همهم اختياره: هل هو ملك أم نبي؟ وكان هذا ما عناهم من مسألة الوحي والدلائل عليه. ونجد فى أدبيات صدر الإسلام تمايز فى الاسمين: ملك أو نبي، يأخذ صبغة أخرى بعد محمد فيكون: ملك أو خليفة. والأخير بمعنى وراثته للنبوذة فى طريقة الحكم. ونعثر على الفارق بين الوصفين موضحا فى تواريخ صدر الإسلام. كما نجد فى عصر لاحق لدى الفيلسوف باروخ سبينوزا فى كلام لا يخلو من التقية لكنه دال على النبي الأول موسى: «من السطحية بمكان وضع موسى فى قائمة الملوك العبرانيين، وهو الذى أقام دولة خاضعة لله وحده وعلى طرفى نقيض من الملوكية - رسالة فى اللاهوت والسياسة، تر. حسن حنفى ٢٠١٧». وكان الجاهليون يعون هذا الفارق بفعل حساسيتهم ضد السلطة فيما كانوا قد عبروا عنه فى المصطلح «لقاح» الذى ورد فى نصوص شعرية ونثرية وثبتته المعاجم.

وكنت قد تحجرت، كما تحجير اللغويون من قبلى، فى أصل الكلمة، فأرشدنى قارئ ألعى هو مالك مسلمانى من حلب إلى مفردة فى القاموس السريانى هى - لقحا أو لقحو، وقال إن أستاذه فى جامعة حلب إبراهيم نورو عربها إلى «ضواحي»، وقد رجعت إلى لويس كوستاز مؤلف القاموس السريانى العديد اللغات (عربى، فرنسى، إنجليزى)، فوجدته يفسرها على هذا النحو «Environs dune ville» و «Confine of city» و «رزداق» يقصد رستاق، وهو القرية كما كانت تعرف فى العراق أيام الساسانيين. (ص ١٧٤ من القاموس، ط بيروت). وكتب إلى مالك: «حتى الآن سكان حواشى المدن لا يخضعون لسلطة الدولة». وهو معروف فى الريف العربى. ولقاحية الجاهليين هى من هذا القبيل. وبهذا المعنى أوردته المعاجم القديمة واستعمله الكتاب المسلمون فى العصور اللاحقة: أورد ياقوت فى بند سجستان من معجمه الجغرافى عن محمد بن بحر يصف هذه الولاية: «لم تزل لقاحا على الضيم ممتنعة من الهضم». يشير إلى قوة المعارضة فيها للدولة.

تطورت اللقاحية فى صدر الإسلام إلى تصور ناضج للدولة البسيطة، كما اشترطها العرب على محمد وخلفائه، بعد أن وجدوا أنه لابد من دولة، ويبدو هذا التصور قريب من ترسيمة التاوين الصينيين لدولة: قليلة القوانين، عديمة الشكليات والطقوس، محدودة المؤسسات، يقف على رأسها حكيم يرشد الناس ولا يحكمهم. (التاوية ترجع إلى القرن السادس ق.م). وهذا الحكيم عند التاوين هو النبى عند الجاهليين.

هكذا تثبتت اللقاحية كأسلوب حكم بعد أن تثبتت لمحمد صفة النبى لا الملك، ولأصحابه الذين أعقبوه صفة الخلافة لا الملوكية. وقد قبل العرب بالراشدين لالتزامهم أصول اللقاح فى دولتهم. ولو أنهم لم يصلوا إلى هذه القناعة إلا بعد حروب دامية خاضوها تحت راية اللقاح خوفا من أن تحل الملوكية محل النبوة بوفاة محمد.

ولما جاء الأمويون قاتلهم العرب تحت هذه الراية لأنهم عادوا بهم إلى ذكريات «كسرى وقيصر»: قاصمة الظهر التى خافوا من وقوعها عليها. وفى هذه المرة انتصر عليهم الأمويون وحولوهم إلى رعايا دون شروط. وانضرت لللقاحية بد الملك العضوض».

يزودنا الإسلام الأموى بالأساس الذى تقوم عليه دولنا اليوم، مع تفاوت فى الأشكال مأخوذ من شكليات الدولة الحديثة. لكن المعارضة السياسية والمسلحة والأيدولوجية التى جوبه بها الأمويون ومن بعدهم العباسيون، أبقت التجربة اللقاحية والوعى اللقاحى حيا فى النفوس. وتبين تداعيات العصور المختلفة للإسلام أن الفرد العربى حافظ على حساسيته الجاهلية من الدولة، فلم يتمتع بالشعبية إلا القليل من الحكام المسلمين طيلة عصور الخلافة. ويصدق ذلك على الأطراف كما يصدق على العرب القريبين من مناشئهم.

يقول مثل شعبى أندلسى: «إذا رأيت الأمير يضحك فاعلم أن قلبى يببكى». وقد وصلنا موروث من رفض السلطة على النطاقين الفردى والجماعى يؤكد الحضور القوى لللقاحية فى المجتمع العربى تحت التسلط اليومى للخلفاء والسلاطين. وأبرز من كتب فى هذا السجل إلى جانب الفرق الإسلامية المعارضة، فقهاء القرن الأول ومتكلموه، وفى طور لاحق: التصوف القبطانى، الذى خرج على سلطة الدين والدولة، وسعى لتعليم الناس كيف يعيشون بلا سلطان: انفتق كم فى قميص رابعة العدوية فخاطته فى ضوء مشاعل السلطان (مواكبه المضاءة التى تمر ليلا) ففقدت قلبها زمانا، ثم تذكرت فعلها ففتقت الكم، فعاد إليها قلبها. (يرقد هذا المنحى من التصوف تحت طبقة سمكية من خرافات ماسينيون ونيكلسون تفقهنا بها كلنا)

والعربى اليوم لا يحب حكومته إلا حين يكون شديد التدين ويتلقى فتوى من رجل دين يقلده. وقد مرت بمصرين يحملون فتاوى شيوخ الأزهر ومفتين الديار المصرية بوجوب الولاء لهذا الحاكم أو ذاك، وهم ملتزمون بها، لكن هذه مجرد حالات فردية. فرجل الدين لا يمكنه تحقيق ولاء جماهيرى لحكم مرفوض من الجماهير. وقد فشلت فتاوى كهذه فى إقناع الشعب المصرى بتأييد شيوخ الخليج والسكوت على العدوان الأمريكى على العراق.. وبالطبع فهذا الرفض للحكم، الذى يعيدنا إلى النزوعات اللقاحية، يرتفع بمعادلات الصراع الاجتماعى والوطنى. إنما الموروث اللقاحى يجعله جاهز للإثارة حيثما احتدم الصراع. وفى الأوقات الاعتيادية تبقى القطيعة بين الحاكم والناس كدليل على

مجرى الحياة اليومي لشعوب تراكم فيها مقت السلطة على امتداد عشرات القرون.

حمل الإسلام إلينا مبادئ وقيم مشاعية على هيئة مُثل فى جملتها وتجارب فى بعضها. والمشاعية من نسيج الشرق. وقد تأصلت فى تراثه كما فى بيئاته الحضارية، واتصلت بالعصر الحديث. وإليها يرجع الفضل فى تفرد الثورة الصينية وبنائها الاشتراكى قياسا على نظيراتها فى أوروبا والاتحاد السوفيتى: حيث نجحت الماوية فى إنجاز نهوض اقتصادى على أساس المساواة فى التوزيع مكنها من توفير الحاجات الأساسية لخمس سكان الأرض. وهو ما عجزت عنه شيوعيات أوروبا التى لا تملك مثل هذا العمق المشاعى فى تراثها ولا فى بيئاتها.

مشاعية الإسلام جاءت من قريب عن مجتمع الجاهلية الذى اختلطت فيه مشاعية البادية مع بدايات ملكية تجارية ورعوية، فجمع بين أنماط شتى من الاقتصاد التجارى والرعى والمشاعى. وإن تكن الغلبة فيه قد بقيت للأخير لاسيما على نطاق النظام القبلى خارج المدن التجارية الناشئة. ومع تطور الثقافة الأدبية للجاهليين وجد هذا الوضع سبيله إلى الوعى، فلم يكن مجرد واقع ساذج يخضع له الناس بعفويتهم، بل جرى على ألسنتهم وصاغوه بأدائهم المفضلة وهى الشعر. وأدبيات عروة بن الورد التى قال فيها إن طعامه شركة، وإن جسمه مقسم فى جسوم كثيرة لا تعبر عن مزاج فردى بقدر ما هى نهج اجتماعى وعاه الناس واتفقوا عليه. ولم تغفل من هذا الوعى أعتى المعاشر التجارية كالعشر المكى الذى حافظ على مبادئ مشاعية فى علاقاته كان تجاره وأرستقراطيوه مضطرين إلى مراعاتها.

ولابد أن نضع فى البحث عن مصادر المشاعية الإسلامية، معرفة مؤسسى الإسلام بأفكار المسيح كما عرضتها الأناجيل الأربعة التى تشكل مع العهد القديم المصدر الكتابى الرأس، وربما الأوحد، للقرآن. ولاشك أن تنديد القرآن فى طوره المكى بالتجار والمترفين قد تأثر بالإصحاحات الإنجيلية التى تضمنت تنديد مماثل بهذه الفئات. ولو أن القرآن لم يصل فى ذلك إلى ما وصلت إليه الأناجيل التى أخرجت الأغنياء من ملكوت الله، وامتنعت عن قبول إيمانهم ما لم يتخلوا عن أموالهم. والفرق هنا يقع بين حركة كانت تريد أن تتحقق فى تكوين مشاعى طليق، وحركة هدفها بناء دولة موحدة لأمة معينة وإقامة مجتمع سياسى مقيد بأصول التجارة والتملك الفردى. على أن هذه الحركة لم تصل إلى هدفها الناجز إلا بعد سلسلة من التناقضات مرت بها، وأثارت النزاع بين أطرافها. وعندما حسمت خيارها النهائى المشار إليه كانت قد بلورت أفكار ونزعات اندمجت فى تراثها المكى لأنها كانت فى الأصل أفكار ونزعات عناصر فاعلة على مستوى القيادة.

نقرأ فى إنجيل متى (١٩/٦) :

«لا تكتنوا لكم كنوزا على الأرض، حيث يُفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون.. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا».

ونقرأ فى سورة التوبة (آية ٣٤) :

«والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فيشروهم بعذاب أليم»، وهذه لم تكن مجرد تهديد بالآخرة. وكنت قد تابعت الآية فى التفاسير والفقه والتاريخ فوقفت على خطة لتجريد

أغنياء المسلمين من أموالهم وقف وراءها فقراء الصحابة وأحبها أغنياؤهم. كما كنت قد توصلت إلى ربط الحطة بتأثيرات مباشرة من روضة الأصفهاني، الذي عرف في تاريخ الإسلام باسم سلمان الفارسي. وهو فيما رجحت من بقايا الحركة المزدكية التي قامت على تصورات مشاعية مماثلة لتصورات المسيح. وقد توقف العمل بالآية زماناً، ثم نسخت رسمياً بآية الزكاة التي جاءت حلاً وسطاً بين مطالب الكانزين ومطالب الفقراء في الجماعة المحمدية الأولى.

على أن المتطرفين من زعماء البروليتاريا المسلمة واصلوا تمسكهم بحكم الآية يتصدرهم أبو ذر الغفاري بدعوته المشهورة التي أزره فيها أركان الشيعة الأربعة وبالأخص سلمان، الأكثر تأصلاً في مشاعيته، ومعهم إمامهم علي بن أبي طالب الذي باركهم بالاسم والشخص، وإن لم يصل إلى شأو التبنى القاطع لمطالبيهم. وقد أعطى بقاء الآية في القرآن بعد نسخها سند شرعي للمطالبة بحكمها لأن الناسخ والمنسوخ من الأمور المختلف عليها. وكان أبو ذر قد تمسك بأنها لم تنسخ. ويتقديري أن محمد حين أبقاها في القرآن كان ينوي عدم حسم المسألة وأن يترك مجالاً للتفكير فيما تضمنته من حكم، فهو بدوره لم يحسم أمور كثيرة تمس الأموال وغيرها من شئون مجتمعه. وقد رُفعت آيات من القرآن في حياته لدواعي مختلفة وكان يمكن لهذه الآية أن ترفع أيضاً بعد أن فقدت حكمها الشرعي.

التأوج الأعظم للمشاعية الإسلامية هو في معشر قرامطة السواد بقيادة حمدان بن الأشعث، الذي تبنى اقتصاد «الألفة» في دار هجرته. وهو نظام يسوعي خالص تخلق فيه أهل دار الهجرة عن ممتلكاتهم ومقتنياتهم ليعاد توزيعها عليهم حسب حاجة كل منهم. وتتميز تجربة السواديين عن نظيرتها في شرق العريبيا (ما يسمى قرامطة الإحساء والبحرين) في كون الأخيرة استندت إلى ملكية الدولة كأساس وتركت للناس التمتع بعوائد شغلهم. مع توفير الضمان ضد الفقر لمجموع المواطنين، أما نظام الألفة فهو مشاعي بالتمام.

ثمت مواد متنوعة في التراث الاقتصادي للإسلام تجرى هذا المجرى الدال على تداخلات القيم المشاعية في حياتنا. وأكتفى هنا بلفت النظر إلى تثبيت مبدأ الملكية العامة للقيعان من طرف عمر بن الخطاب، مما اصطلاح عليه بالقيعان الخراجية، وهي معظم ملكيات دار الإسلام. وكان قد سبق لكارل ماركس أن رجح في رسائله المتبادلة مع أنجلز حول الإسلام والشرق، أن المسلمين هم أول من عمم مبدأ «لا ملكية» الأراضي في جميع آسيا.. ويجب أن يفهم هذا التعميم بالمعنى الأخص، لأن ماركس نص في الرسائل نفسها على شمول المبدأ للشرق، وكونه بالتالي قد وجد قبل الإسلام وفي بلدان لم يحكمها المسلمون كبلدان الشرق الأقصى. وأعتقد أن ما أراده ماركس هو «وعى» المبدأ وتعميمه فقهاً. وقد يكون ذلك من نتائج قراءته لكتاب عربي في الأموال، ربما لأبو عبيد، في ترجمة إنجليزية كانت في مكتبة المتحف البريطاني أيام إقامته في لندن.

الملكية العامة ليس للقيعان فقط، وإنما لجميع الأموال مأخوذة في القرآن تحت اصطلاح «مال الله» الذي يفسر بـ «أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما موكلكم بإياها للاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم إلا بمنزلة الوكلاء والنواب». وقد فهمه المسلمون وتداولوه بدلالاته هذه، بينما حاول فقراؤهم استخلاص مفهوم مشاعي منه، فكونه مال الله يوجب أن يكون لعباد الله كلهم. ولا يزال الشحاذون يقولون في

استعظائهم: «من مال الله». وكنت أسمعهم فى العراق يقولون: «المال مال الله والسخى حبيب الله». لكن دلالتة الأساسية هى المحاكمة فى الفقه/ الذى ينهض على قاعدة العمل فى الأصل ويفرغ منها ملكية الاستمتاع. وهذه تركز العائد الفعلى للأموال على أساس من يتصرف فيها بالفعل بوجه من الوجوه الشرعية للملك. ودور القاعدة الأصلية هو إعطائها الأموال الخاصة صفة الحياة دون الامتلاك مع ما ينبى عليه من إمكان نزاعها من الحائز. وهو ما استفاد منه الحكام المسلمون فى ملاحقة التجار والأثرياء والملاكين العقاريين بالمصادرة على هواهم ولحاجاتهم الخاصة بهم، مما كان له أثر سىء على تطور الاقتصاد الإسلامى.

مبدأ الملكية العامة حافظ على حضوره فى الوعى الإسلامى. واستمر يفرض مفاعيله على سلوك الدول فى الأمور الاقتصادية. ومن الملاحظ أن الدول العربية الحديثة التى قامت على الاقتصاد الكولونىالى المدمج فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى، لم تتوصل إلى خصوصية كاملة لمرافق الحياة إلى الدرجة التى تسير عليها الحياة فى المتروبول الغربى. إن مؤسسات النقل جوا وبحرا وبراً، والبريد والهاتف والماء والكهرباء مملوكة كلها للدولة التى تملك أيضاً جميع المناجم ومعظم الأراضى وجميع شبكات الطرق والجسور.

الإسلام والخصام مع الغرب :

بين الغرب والشرق الأوسط عداًء مديد يرجع إلى العصور القبمىلادية. وقد اشتد أواره بالحروب المتطاولة بين روما وقرت حدش (القرية الحديثة، المعروفة عند الغربيين باسم قرطاجة). ومحاولات حتى بعل الذى يسميه الغربيون «هانىبال» احتلال روما لاستئصال مصدر عدوان أخذ يهدد باكتساح شمال أفريقيا وآسيا الغربية، كما نفذ فيما بعد بالفعل. وفى ذلك الوقت رفعت روما شعار «قرت حدش يجب أن تدمر» وهو الشعار الذى يرفعه الغرب حتى اليوم ضد أى موقع يرى فيه الغربيون بعض التحدى لهم، وفيه تتلخص سياسة المهابدة (GENOGIDE) التى تطبق عادة بحق هكذا موقع. وقد احتل الرومان بعد تراجع قرى جميع البقاع فى أفريقيا وآسيا الغربية، ودام حكمهم لها حتى ظهور الإسلام الذى أعاد الكرة على الغرب، فطرد الرومان من هذه البقاع وحشروهم فى القسطنطينية. ثم واصلت جيوشه تقدمها مدفوعة بنزعة التوسع التى تحكم سياسة القوى الكبرى حتى اليوم، فاحتل أسبانيا وتقدم لاحتلال فرنسا فى خطة وضعها موسى بن نصير لاجتياح أوروبا ورفضها خليفته الوليد بن عبدالمك.

ولما كان البيزنطيون قد احتفظوا أمام المد الإسلامى بالقسم الأوروبى من إمبراطوريتهم بعاصمتها القسطنطينية، فقد جعلوا الحرب حالة قائمة مع الإسلام عاشت طيلة العصور الإسلامية. وفى أسبانيا كانت حروب الاسترداد تصبغ بالدم علاقات الإسلام بالغرب على مدى سبعة قرون. وجاءت فى هذه الأثناء غزوات الإفرنج الصليبية لتشعل حروب طاحنة لمدة قرنين. وعلى الرغم من التكامل فى تاريخ المدنية بين العالمين، فقد بدا من المتعذر عليهما أن يتلاقيا حول مبادئ مشتركة ويسود السلم فيما بينهما. وقد انطبعت علاقتهما بالتوسع المتقابل كواقع تترىخى. لكن ما أرسى الحاجز الأعظم بينهما

هو التعارض الهائل فى القيم الحضارية التى عاشت فى وضعية تصادم منعت من تقاربها لتحقيق التعايش، فكان تلاقيها، ولا يزال، يتم فقط من خلال مخططات صهر متقابلة فشل معظمها. ولم يتحقق تبادل فى القيم الأخلاقية والحضارية وإنما فى العلوم فقط.

لقد أخذ الإغريق علوم البابليين والمصريين ولم يتأثروا بنمط حياتهم وتقاليدهم الحضارية. وترجم العرب علوم وفلسفة الإغريق ولم يترجموا آدابهم. وترجم الأوروبيون علوم وفلسفة العرب ولم يترجموا آدابهم. وما ترجم منها لم يفعل شئ... وقد فشل كتاب الأخلاق لأرسطو فشلا ذريعا، فلم يكن له أى صدى فى المجتمع الإسلامى عدا نظرية الوسط الذهبى التى تداولها المعنيون بالفلسفة كموضوع معرفى مش اجتماعى.

إن المجابهة بين الإسلام والغرب عززت من التباعد النفسى بين الغربيين والمسلمين، لاسيما العرب.. إن كلمة إفرنج حيثما وردت فى كتاب عربى قديم تلحقها فى الغالب لعنة الله مع الإشعار بالعداء والكفر والتغليظ فيه.. «فى هذه السنة وصل البرتقال اللعين من الفرنج الملاعين...» كما كتب النهروالى وهو يؤرخ وصول فاسكو دى غاما إلى السواحل العربية. ولا تجد مثل هذه اللغة فى الكلام عن أهل الصين وأهل الهند، الذين يحظون بتقدير عام عند المسلمين. ويطلق عادة على الإمبراطور البيزنطى وملوك الإفرنج لقب «الطاغية»، ولا يرد مثل ذلك عن ملوك الشرق. وتقترن صورة الهندى والصينى فى مخيلة العربى بالحكمة وحسن الصنعة مع حكايات خاصة عن عدالة ملوك الصين، بينما ترسم للإفرنجى صورة العليج الغليظ المحتقن بالعداوة.

وعندما كان المعارضون المسلمون يجدون حاجة إلى البحث عن مأمّن كانوا يتوجهون إلى الهند والصين وليس إلى أوروبا. وقد التجأ أحد أبناء «النفس الزكية» الشائر على المنصور فى الحجاز إلى الهند وعاش هناك. وقبله التجأ جمع من معارضى الأمويين فى المشرق إلى الصين وشكلوا أول جالية عربية إسلامية استقرت فى الجنوب. وكان بمقدور أى فرد أن يتوجه إلى تلك الأصقاع البعيدة حيثما شعر بالخطر على أمنه بسبب خصام سياسى. وقد خرج أحد تجار البصرة بعد دخول الزنج إليها متوجها فى البحر نحو الشرق الأقصى وانتهى به المسير إلى الصين حيث استقبله إمبراطورها بعد أن أبلغه أنه من أقرباء نبي المسلمين. وكان من أصل قرشى. وأرسل المنصور قوة منتخبة من أربعة آلاف مقاتل نجدة إلى إمبراطور تانغ المعاصر له حين تعرض لعصيان مسلح استهدف خلعه من العرش. وأعادت القوة الإمبراطور إلى عرشه. ولما استتب له الأمر عرض عليهم البقاء عنده، فبقوا وتزوجوا من صينيات.

وخلافا لأوروبا كان المسلمون الذين يستقرون فى الصين والهند لا يجبرون على تغيير دينهم. وقد عُرِف الصينيون بتسامحهم مع الأديان وتقسكهم بحرية العقيدة لمن يقد عليهم. وكانت جميع الفئات التى وصلت إلى الصين من المسلمين قد تصينت بمرور الزمن حتى صارت أجيالها اللاحقة لا تعرف العربية أو الفارسية والتركية. اللغات الثلاث الأساسية للوافدين على الصين. إلا أنها حافظت على دينها. وهى تشكل سلف قومية هوى المسلمة، الناطقة بالصينية. ولم تتعرض هذه القومية للاضطهاد إلا فى عصر متأخر، لاسيما عصر أسرة تشنغ التى ترجع إلى بداوة مغولية بعيدة عن حضارة الصين. وكان وصول المسلمين إلى الهند كقوة احتلال قد أثار بعض الصراع الطائفى، إلا أن التذايح لم

يتفاقم إلا فى ظل الحكم البريطانى، وإن لم يصل فى أى وقت إلى ما وصل إليه بين العرب والأسبان. هل يصعب علينا الآن أن نعى مغزى تلك الإعلانات التى تعلقها دور السينما فى دمشق مكتوبا فيها: «عندنا أفلام عربية وهندية وأجنبية» بغفوية ناس عاديين يشاهدون أوروبا وأمريكا يوميا على شاشة التليفزيون أكثر مما يشاهدون الهند؟

وما عند الغرب أدهى :

فى مجرى التناحر الطويل، كان من الطبيعى أن ينظر الغربيون إلى الشرق الأوسط بوصفه المصدر الأراس للخطر عليهم، لاسيما وهو يماسهم ويحاذيهم. وإلى ذلك ترجع عقدة الغرب تجاه عموم الشرق، الذى لم يكن الغرب يعرف منه إلا الشرق الأوسط حتى رحلة ماركو بولو. وفى دراسة إدوارد سعيد البالغة الأهمية عن الاستشراق، يبدو هذا الوضع مجسم فى تفاصيل دقيقة وأفية ساعدتنا على أن نفهم أن الاستشراق مشتق من الشرق الأوسط، وأن تعميمه على الشرق يرجع إلى طور لاحق من ظهوره.. وفى العصر الحديث، اشتدت العقدة بدل أن تتراخى. ونحن نضع هنا اعتبارين: الأول تقدم الفكر واتساع أفقه الإنسانى، والثانى تقدم الرأسمالية واتساع نزوعها الهيمنى التدميرى. والأخير هو الأفعل فى ساحة العلاقات الدولية. أما الأول فهو نزوع أفراد من عظماء المثقفين.

وقد استند الكثير من متعلمينا وليبراليينا إلى سيرورة الفكر الأحادية، المعزولة فى الغالب، لكى ينادوا بانتهاء ممايزة شرق - غرب، حتى تقرر عند معظمهم وهم الدمج بين جان جاك روسو وفرانسوا ميتران، بين ديفيد هيوم ومارجريت تاتشر، بين أرست همنجواى ورونالد ريغان، منطلقين من أن الثقافة الغربية كما وطدها أولئك العمالقة، هى التى تسيّر وتنمط سياسات الدول الرأسمالية القائمة فى الغرب، تماما مثلما يسعنا أن نقول فى المقابل أن لزوميات المعرى هى التى سيرت وغطت السياسة العباسية والفاطمية!

يتميز الغرب بسرعة استجابة للتحويلات فى الشرق العربى أعلى منها تجاه التحوّل فى بقاع الكوكب الأخرى. لقد نهضت اليابان ومصر فى عقد متقارب/ نهضة فوجى ونهضة محمد على: لم يفكر الغرب كثيرا فى نهوض اليابان وإنما تعامل معه على ساحة التنافس فى الشرق الأقصى. أما نهوض مصر فاستدعى تشكيل قوة مشتركة انجلوفرنسية احتلت مصر لمنعها من النهوض. بل ويعرف دارسو تاريخنا الحديث كيف تنادى الغرب كله لحماية الإمبراطورية العثمانية المسلمة ضد الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا، إذ هو كان يدرك أن الإمبراطورية المتداعية إذا طارت على يد مصر فستصبح كارثة على أوروبا. وهكذا أجل الغرب تهيب الإمبراطورية عدة عقود حتى تهبأ له أن يفككها بنفسه ويتوزع أقاليمها على دوله ليضمن عدم حدوث تحوّل حاد فى هذه الزاوية، الحادة من الأرض.

لقد ورثت الرأسمالية الغربية تقاليد عدا راسخة للشرق الأوسط وأدمجتها فى سياستها التوسعية التى تأخذ هنا منحاه المتميز عنها فى أى جغرافيا أخرى. إن قانون الريح الأقصى الرأسمالى يتماهى فى الشرق العربى حقا قروسطيا على التاريخ والحضارة والناس، حيث يصبح النهب الاقتصادى أداة واحدة فى مأكنة مستعدة لإحراق الأرض والسماء والبشر والمياه مادامت تنتمى إلى هذا العدو

الجغرافى.

وتتمتع بدلالة مهمة هنا ملاحظة إدوارد سعيد فى كتابه الآنف الذكر، وهى أن الاستشراق المتخصص فى شئون الشرق الأبعد قد تعدل بمناهج البحث الحديثة، بينما بقى الاستعراب على حاله. وتتضمن العقدة العربية فى الغرب بعقليته القروسطية التى لم تتعدل، فيما يخص هذه المسألة كما فى مسائل أخرى، بتطوره الهائل فى مضامير العلم والتكنولوجيا. وينبغى أن لا نفاجا، فمنظومة التفكير الرأسمالية قابلة لاحتضان مستبقات فكرية ونفسية لحضارات سابقة اختلفت عنها فى نمط الإنتاج و لم تخرج بالضرورة عن تلك البنى الذهنية المشتركة لمجتمعات الملكية الفردية. وفى العقلية الرأسمالية من الشعوذة والغيبيات والوهمانية والتنجيم. مثل ما فى أية عقلية تقوم على اقتصاد استغلالى يعتمد الآلية البحتة لعلاقات البيع والشراء. فليس مستغربا بالتالى أن يتكلم قادة غربيون بنفس لغة أسلافهم الذين درجوا قبل ألف عام فى أمور سياسية تمس العلاقات ما بين الغرب والشرق.. الأوسط.. حيث تصرح مارجرى تاتشر مثلا بأن القوات البريطانية يجب أن تبقى على حالها دون تخفيض لأن أوروبا قد تحتاج إليها لمواجهة نهوض إسلامى محتمل. (إذاعة لندن العربية يوم ٢٧ حزيران/ يونية ١٩٩٠).

وكانى بالغرب يشاطر الشيعة قولهم بالرجعة، فالمسلمون عند الشيعة سيعودون بأشخاصهم، وعند الغربيين بمنهجهم وسياساتهم. والفتوحات الإسلامية ستكتسح البحر المتوسط مرة أخرى وتعتبر إلى الأندلس بقيادة الراجع طارق بن زياد، أو السائر على منهاجه من زعماء العرب والبربر المقبلين.. ومن تلبسهم بهذا المذهب الشيعى، الذى يقال إنه يرجع إلى أصول فيشاغورية، ينادى زملاء مارجرى لتعزيز المواقع الدفاعية على طول السواحل الجنوبية والشرقية لأوروبا، حيث لا يسعى السياسى الغربى، بل والمثقف الغربى (ولنذكر أن أكبر فلاسفة الغرب الأحياء فرانسوا ليوتار كان قد وقع مع جورج بوش على شهادة إحراق العراقيين) أن يتصور نهوض العرب من دون فتوحات، مادام التاريخ مشطوب من ذهنية الرأسمالى الذى لا يفهم الزمن إلا كما فهمه أرسطو: آتات متعاقبة تترافق ولا تتفاير وتبقى مع كدها المتواصل تعيد إنتاج ما أنتجت من قبل.

والآن نسأل :

هل سيقود الإسلام صراعنا اللازب مع الغرب اليوم كما قاده بالأمس؟
يقتضينا السؤال أن نتحدث عن «الصحوه الإسلامية» وهى التى ستشكل لب موضوعنا هذا. معروف أن «الصحوه» جاءت مع ثورة الخمينى، وفهمها الغرب ومعظم العلمانيين العرب والمسلمين على أنها عودة إلى الأصول، بمعنى ردة سلفية تقوم على سياسة الفتح المضاد. ويتفق منظرو الصحوه مع خصومها على أن الثورة الإيرانية بزعامة آية الله الخمينى حدثت بفعل نزعة التدين المفرطة عند الإيرانيين. وكذلك الحركات السلفية الناهضة فى البلدان العربية ترتعن فى هذا التحليل باشتداد حمى التدين لدى الجماهير فى هذه البلدان.. وربما عمد البعض إلى العولمة فجمع الصحوه الإسلامية إلى الصحوه الكنسية فى الغرب، أو بالتحديد، فى تلك البلدان الغربية التى كانت تطبق الاقتصاد الاشتراكى مثل روسيا وأوروبا الشرقية، ليتحدث عنها كظاهرة عالمية.

إن التدين مسلک فردى يوجد فى جميع الأزمان، وفى جميع المعاصر، وفى جميع مراحل التاريخ. ومزاولة فروض العبادة لا تخضع للنظام السياسى أو الاقتصادى. فالمعابد قائمة فى كل بلد، والناس يقصدونها للتعبد إذا كانوا من الأحاس، ويحترمونها ويسهمون فى بنائها إذا كانوا أفراد عاديين فى الملة. وتلتزم حتى الحكومات «الملحدة» باحترام هذا الوضع إلا فى حالات عابرة، كالتى كانت فى ثورة ماو الثقافية وصداها الألبانى. والتدين من جهته مش هو الذى يسير السياسة ويقن النظام السياسى. فالمعتاد أنهما مستقلان عن بعضهما، ولو أن السلطة قد تستخدم التدين لأغراض إعلامية أو تعبوية تلتزمها، زيادة على ما هو معروف من ارتباط الاكليروس أو بعضه بالدولة ومصالح حكامها.

وبقى ذلك على أى حال خارج خط التدين العمومى الذى لا يتأثر بالسياسة، لاسيما أن المتدينين ينتمون إلى طبقات وفئات متباينة، وطبيعى أن تكون لهم آراء سياسية واجتماعية متباينة أيضاً. ولا يصبح التدين وضعية سياسية إلا فى شروط محددة. وبالنسبة للمجتمع الإسلامى، يقف المرء على فريقين عرفتهما العصور الإسلامية: متدينين سلفيين، ومسلمين عاديين. الفريق الأول مجده غالباً فى طوائف معينة، أو فى أماكن دون غيرها ويكون تحت تأثير رجل دين أو رجال دين متعصبين يتحرك بموجب فتاويهم. ويمكن وصف هذا الفريق كغوغاء دينية أكثر من «جمهور مؤمنين»، والمثال الصارخ على ذلك بعض فئات الحنابلة التى نشطت فى المدن الكبرى كبغداد ودمشق.

وقد تلتف هذه الجماعات حول رجل دين قوى من أية طائفة أو مذهب تكون له جاذبية خاصة. ونشاط هؤلاء فشوى، تكتلى ولا يرقى إلى مستوى النشاط الجماهيرى. فالحنابلة فى بغداد كانت تهاجم من تتهمهم بالمروق من أهل الثقافة بتصرفات غوغائية عنترية معزولة عن عوام بغداد. وقلما توصلت إلى إثارة مد جماهيرى حولها. رغم أنها استطاعت فى هذه الحاضرة وغيرها أن تصيح مصدر قلق لكثير من المثقفين، بمن فيهم مثقفين حنابلة تصدر عنهم أحياناً شطحات لا يفهمها متصددو الجماعة وأرباب الفتوى فيها. وكنت قد بينت فى مباحث سابقة أن متنورين كبار كالمعري كانوا لا يخافون من السلطة بقدر خوفهم من الغوغاء الدينية، بل إنهم كانوا يجدون لدى السلطة نفسها ملاذ من خطر هذه الفئات عليهم.

إن المسلمين العاديين هم جمهور العوام، وسبق للفكر الإسلامى أن فارق بين الغوغاء والعامية. والأخيرة عندهم هى سواد الناس وجمهورهم الأعظم. وهم موزعون على الفرق والمذاهب. والسائد بينهم هو التدين العفوى، البسيط. وكانت العامة فى العصور الإسلامية تؤدى الصلاة فردياً وجماعياً وتصوم رمضان وتقصد مكة إن قدرت عليها. وهى فى الوقت نفسه تشرب الخمر وترتكب المحرمات الدينية داخل المجرى اليومى للحياة. وأكثرية العوام لا تسرف فى العبادة بل تكتفى بأداء الصلوات اليومية الخمس دون نوافل، وتصوم رمضان دون غيره من الأشهر، وتحج مرة واحدة فى العمر. وإنما يؤدى هذه الزيارات فى العبادة أفراد المتفقهين منهم الذين يحصلون على نصيب من الثقافة الدينية بالسماع أو القراءة.

التدين العامى لا يتيسس. ويتعذر على رجل أو رجال الدين أن يعبتوا جماهير واسعة للقيام بعمل

هو من خصوصيات موقف فردى لرجل الدين أو ذو علاقة بطائفته.. الاستجابة هنا تكون ضمن أتباع رجل الدين أو جمهور طائفته، والغوغاء منهم على الأكثر، ولا تمتد إلى قطاعات الملة الأخرى. ومن الأوهام التى تتكرر فى أوساط المؤرخين المعاصرين أن العامة اضطهدت المفكرين. وهو وهم ناتج عن الخلط بين العامة والغوغاء الدينية. إن أهل الإسكندرية وأهل القاهرة لم يخرجوا فى مظاهرات حاشدة للتنديد بآبن سبعين حين قدم إليهم منفىا من المغرب، وإنما منعه من الإقامة بمصر رجال الدين الذين كان بمقدورهم تحريك أتباعهم المقربين لإزعاج القطب الصوفى وعدم تمكينه من الاستقرار. وغوام بغداد ليسوا هم الذين رموا الحلاج بالحجارة وهو مصلوب وإنما الغوغاء التى كانت توجهها الحنابلة.

الاستجابة الجماهيرية تحل بعيدا عن أوساط المتدينين فى أوضاع يقع إجماع بشأنها. كحدوث تهديد لديار الإسلام، الغزو الإفرنجى (الصليبي) مثلا، أو وقوع مظلمة من سلطة، والعامة متضامنة مع بعضها ضد الدولة. ويكون تحركها أقوى وأشمل حين تصدر فتوى من فقيه محترم ومعروف بالنزاهة. وهى تتحرك غالبا تحت هاجسين: العدل مقابل السلطة والإسلام مقابل الخارج. وتلتقى العامة حول هذين الهاجسين بصرف النظر عن سلوكها اليومى الذى لا يتحدد بالأوامر والنواهي الشرعية.

تنفرز هذه الظواهر أكثر فى العصر الحالى. إن العامة لم تعد تؤدى العبادات بانتظام، وصار الإفطار فى رمضان وترك الصلاة من الأمور المألوفة. والكثير من القادرين على الحج لا يحجون. والمسلمات غير مجمعات على الحجاب فأكثر من نصفهن سوافر. لكن الإيمان بالإسلام قاسم مشترك بين المصلى وتارك الصلاة، وعلاقة العامة بالعقيدة لم تتغير عن مستواها فى العصور الإسلامية. ويمثل الإسلام هنا كهوية حضارية تحملها الجماهير بحكم الوراثة مع اتصال البيئة واستمرار التقاليد. أما العقيدة فوراثية فى البداية، ثم تصبح خيار واعى مع غو الشخص الذهنى من الطقولة إلى الصبا فالشباب. ويثبت الدين فى الجمهور بصرف النظر عن تباير المراحل الاجتماعية. إن الإيمان بالمسيحية فى الغرب بقى هو نفسه فى طورى الإقطاع والرأسمالية. وإنما تغيرت وتيرة الدين فانخفضت عن السابق بنسبة كبيرة، وعدم الدين لا يرادف عدم الإيمان. إن التحلل من فروض العبادة يرتبط بمقتضيات الحياة العصرية التى علمت السلوك الاجتماعى، كما جعلت التردد على المعابد لا يتيسر دائما لغير المتقاعدين. أما التحلل من الإيمان فيقتضى مرحلة عليا من التفلسف يتعذر بلوغها لغير النخب المثقفة. ولا يسع الناس كلهم أن يتفلسفوا لأن وقتهم مشغول باختصاصاتهم التى تتطلب مدة معادلة لتلك التى يحتاجها المرء لكى يحصل على معرفة عالية.

إن تمسك الجماهير بالإسلام لا يسمى تدين، وكذلك ليس كل مسلم سلفى أو أصولى. فالمسلم قد يكون قومى، ليبرالى، شيوعى، ويبقى محتفظا بإيمانه الدينى. وإنما يختلف الأمر فى حال التمرس، الذى يتعدى الاتجاه السياسى أو الاجتماعى إلى التمذهب. والماركسية غير الشيوعية. إن عامة المسلمين فى الأحزاب الشيوعية يتصنفون كشيوعيين لا كماركسيين، ما لم يتوغل أحدهم فى فلسفة ماركس فيصبح ماركسى وينتقل إلى حالة فكرية أخرى تبعده عن الأديان. لكن الماركسى لا ينخلع هو الآخر عن هويته الحضارية. بل هو لا يقدر على الانخلاع حتى لو اختاره ما لم يبدأ من النشأة فى وسط آخر تتبلور له فيه ثقافة أخرى. وهكذا نقول مثلا: حسين مروة ماركسى، أى ملحد،

وعربى مسلم، أى مش أوربى أو صينى أو أفريقى. وكلمة مسلم تثبت مع الإلحاد، وإنما تطير كلمة مؤمن. فالأولى هوية ثقافية، والثانية دين.

وكان قد سبق لظه حسين أن نبه إلى هذا الفرق الجوهرى بين المسلم والمؤمن فى مقدمة «تجديد ذكرى أبى العلاء»، فاعتبر المسلم وصف يشمل جميع أولئك الذين عاشوا فى العصور الإسلامية. وأخذوا بحضارة الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانوا مؤمنين بالإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو ملحدين أو لا دينيين. وقياسا عليه يمكننا أن نصف المسلم الصينى أو المسلم الأفريقى أو المسلم الأوروبى (إن وجد حقا؟) بأنه مؤمن بالدين الإسلامى أكثر مما هو مسلم. لقد عشت مع المسلمين الصينيين ردحا طويلا فوجدتهم كونفوشيين كبنى قومهم غير المسلمين، لا يتمايزون عنهم إلا بشكل العبادة والصيغة الشرعية للزواج، دون تقاليده الأخرى، وعدم أكل لحم الخنزير.

إسلام الجماهير إذن لا يشترط التدنيد كنهج فردى، ولا السلفية كنهج سياسى. وتؤطر هذه الهوية عداء الجماهير للغرب بوصفه الضد التاريخى للمنطقة وسكانها. وكما بينت فضدية الغرب تسبق الإسلام، لكن الإسلام أعطاها الإطار الأيديولوجى والحضارى الذى يجعلها أكثر انتظاما فى حركة العداء. ومن الضلال السياسى أن يفسر اتجاه الجماهير هذا بأنه مدفوع بحلم إقامة الحكم الدينى. يمكن أن يكون الحلم هو شكل من تصور العودة إلى لقاحية الراشدين، (الدولة البسيطة غير القاهرة) أو مشاعية المسيح كما تمثلت فى قيادات وأفكار وأجنحة معينة من المسلمين فى عصورهم، لكنه بالقطع ليس حلم إقامة دولة تقطع أيدى السراق وترجم الزناة وتجلد شاربى الخمر.

إن هذا حلم السلفية السياسية، التى قد تركب موجة الجماهير المعادية للغرب فى لحظة ما، كما تفعل الجبهة الإسلامية فى الجزائر فى هذه الأيام. أما التدنيد فهو فى الغالب قرين أحد اتجاهين: فردى يمارسه مسلم لا شأن له بالسياسة، أو رسمى تتولاه الدولة. وهذه حالة غير شائعة بخلاف الأولى، إلا أنها تترسخ كمثال مدهش فى تجربة السعودية التى تقيم دولة دينية بحتة وملحقة فى الوقت نفسه بالمسكر الغربى. ويتعايش التدنيد فى السعودية مع الولاء للغرب، بينما يتناحر مع إسلام الحمينى الضد - غربى. والسعودية فى ميزان الإمبرياليين هى الوجه الآخر لسيرورة ارتباط يضمن الغرب من ورائه ولاء الغرب، إلى جانب العلمانية الليبرالية المستغربة.

ماذا تعنى الصحوة الإسلامية هنا؟ إن السلفية الحالية تتبع الغرب، مش أيدىولوجيا بل اقتصاديا. والاقتصاد الواحد قد تكون له عدة أيدىولوجيات بمقدار ما نأخذ الشكل الاعتقادى الذى يمكن أن يتكيف مع أى نسق سىيا - اقتصادى. ويرجع الاستتباع السلفى للغرب إلى ما بعد اندحار المقاومة الإسلامية الأولى أمام الاستعمار الغربى، حيث وجد الاقتصاد الرأسمالى مساربا سالكة لاحتلال مواقع الاقتصاد السلفى المغلق. وتبعنا لمكتشفات مهدي عامل وسهير أمين فالاقتصاد الرأسمالى الذى دخل إلينا هو الكولونيالى باصطلاح الأول، والطرفى باصطلاح الأخير. وفى كلا الاصطلاحين هو اقتصاد تابع. ودخلت السلفية المسلمة فى حومة الاقتصاد الواغل وأخذت تطور عليه تجارها الدينية وأسلوب حياتها. وصار الغرب قيمة معيارية يقاس عليها الموروث والمعيش معا.

وفى حلبة السياسة، قدم السلفيون خدماتهم للاستعمار، وأخذت هذه شكل فتاوى تصدر حسب الحاجة فى أى ظرف. وكمثال عليها فتوى رجال الدين الهنود أن الهند تحت الحكم البريطانى هى «دار

سلام»، رداً على إعلان المقاومين المسلمين الأوائل بأن الهند صارت مع دخول الإنجليز إليها «دار حرب.. دار كفر». ومن جهته، رتب الغرب ما يلزمه لتخديم الإسلام. ولا يخفى اليوم أن الدول المسلمة داخلة بأجمعها في خط التبعية للسياسة الغربية ولا تخرج عنها إلا في المظاهر الشكلية كالإعلام الضد إمبريالي لبعض الدول. وقد أنشئت منظمات إسلامية لتأطير وتنظيم الخدمات التي يتعين على الدين الإسلامي تقديمها للغربيين. منها منظمة المؤتمر الإسلامي الذي يضم في عضويته جميع الدول المسلمة. ومن سياسات هذا المؤتمر التي تكشف عن تبعيته للغرب: تأييد العراق في حربه ضد إيران، وتأييده الولايات المتحدة في حربها الأخيرة ضد العراق، وتعليقه عضوية أفغانستان الاشتراكية، بينما يقبل في عضويته تركيا المعادية للإسلام والتي ألغت عطلة الجمعة وصلاتها. وبما له دلالة أن يعقد المؤتمر لقاء الأول بعد حرب الخليج في عاصمتها أنقرة حيث أقر جميع قرارات مجلس الأمن ضد العراق بما فيها فرض الحصار الغذائي والدوائي على «المسلمين» العراقيين. المنظمة الأخرى هي رابطة العالم الإسلامي في مكة. وهي أقدم زماناً من المؤتمر، وتربطها علاقات فعالة مع القوى السياسية والاجتماعية العاملة في خدمة المصالح الغربية حسب طبيعة تركيبها وطريقة نشاطها. وهي أخطبوط نشاط واسع وتحت تصرفها مليارات الدولارات. وقامت في الستينيات بدور كبير في إسقاط سوكارنو وإبادة الحزب الشيوعي الإندونيسي. وتقوم الآن بنشاط مخيف في الصين.

والسلفية على غرارين: رسمي خاضع للدولة كالسلفية الأزهرية. وحركة سياسية تهدف إلى إقامة الحكم الديني، ومثالها مجمل الحركات الإسلامية القائمة الآن.. في الغرار الأول تمشى السلفية مع الدولة التابعة في تبعيتها للغرب. ومن الغرار الأخير يقف المرء على حالة تفاهم بين الإسلام والغرب يقبل الغرب بموجبه إقامة الحكم الديني ويضمن الإسلام للغرب عدم التعرض لمصالحه. والحكم الديني قائم الآن في السعودية بدعم غربي. وسعى ضياء الحق لإقامته في باكستان تحت نفس الدعم. ومعروف أيضاً أن مستعمرات الخليج تخضع لأشكال متقاربة من الحكم الديني العشائري. وهي ترعى نشر التراث الديني وتنفق عليه أموال طائلة. (رأيت في مكتبة صينية نسخة من موسوعة فقهية طبع في دولة قطر مغلفة بغلاف من القטיפه مما لم يسبق أن حظى به كتاب مقدس أو دينوي، ودولة قطر هي أول دولة خليجية تقيم علاقات اقتصادية مع إسرائيل).

سيرد على راد بواقع معاداة السلفية الخمينية للغرب.. وأقول له إن الخمينية جديدة على العالم الشيعي الحديث.. إن حركات التحرر في كل من إيران والعراق قد بدأت بقيادة فقهاء الشيعة من زملاء وتلامذة جمال الدين الأفغاني.. وأظهر هذه كانت: حركة التنبك بإمامة حسن الشيرازي، ثورة المشروطة بإمامة كاظم الخراساني، مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق بإمامة فقهاء النجف، ثورة العشرين العراقية بإمامة نفس الفقهاء، ثم حركة تأميم النفط بإمامة أبو القاسم الكاشاني. ولم تستهدف هذه الحركات إقامة حكم ديني وإنما تبنت أهداف عملية طرأت في مجرى الصراع ضد العدوان الغربي أو الاستبداد المحلي: حركة التنبك كانت ضد الاستعمار الاقتصادي الذي أراد دخول إيران عن طريق شركة تبغ بريطانية حصلت على امتياز احتكار إنتاج التبغ وتوزيعه في إيران. وكان التبغ حينذاك عصب الاقتصاد الإيراني.. حركة المشروطة اندلعت بوجه الشاه القاجاري لإرغامه على

إجراء انتخابات نيابية وتشريع دستور يكون مقيد لسلطته. ولم يسم الدستور إسلامياً بل اشترط فيه فقط أن لا يتضمن ما يخالف الشرع. وكان المراد بهذا القيد أن لا يكون دستور المشروطة نسخة من الدساتير الغربية.

أما ثورة العشرين العراقية فنادت بتشكيل حكومة مستقلة يتولاها ملك عربي مسلم، مقيد بدستور، لم تشفعه بالشرط التي نصت عليه حركة المشروطة. ومن الجديد في ثورة العشرين تحالف قائدها آية الله مهدي الخالصي مع السوفييت (في عهد لينين). ولما بايع الخالصي الملك فيصل اشترط عليه أن لا يخضع للإنجليز، ولم يشترط عليه التقيد في أحكامه بمبادئ الشريعة. أما حركة أبو القاسم الكاشاني فكان لها هدف بعينه هو تأمين النفط الإيراني. وقد دعم الكاشاني حكومة علمانية برئاسة مصدق. ثم تخلى عنه بعد ذلك واعتزل السياسة في ظروف لا محل لذكرها الآن.

تندرج هذه الحركات في مسمى لاهوت التحرير الإسلامي. لأنها كانت بقيادة رجال دين دون أن تتوخى إقامة حكم ديني وإنما إنجاز هدف تحرري خالص. وقد جرت في خط جمال الدين الأفغاني الذي دعا إلى نهضة شرقية تقوم على مبادئ العصر الحديث، إنما تستلهم التراث وتحتاشي الغرنة. وجمال الدين مبشر علماني من خلال التراث الذي استوعبه أفضل من أية داعية علماني آخر معاصر أو لاحق له. وكان أقرب إلى الإلحاد منه إلى الدين. وإلحاده متوقع لأنه تعمق في الفلسفة الإسلامية والحديث. وكان جمال الدين قد أقام في مدينة النجف أربع سنوات، وتردد عليها فيما بعد سرا. وهو شيعي الأصل وإنما تسنن حتى يكون مقبول في العالم الإسلامي الذي نشر فيه دعوته. وقد تأثر به جيل من فقهاء الشيعة هم الذين قادوا الحركات المذكورة آنفاً.

الثورة الإيرانية هي من جهة المنشأ فصل آخر في مسلسل هذا الفرار لحركات تحرر يقودها فقهاء. وكانت متوقعة ومفهومة لمن يعرف أسرار الشيعة، ومحيرة وعامل تخطيط للمراقب البعيد. وعندما كتبت لأذكر قيادة الثورة في أشهر انتصارها الأولى بالتراث الهرطقي للشيعة (شئون فلسطينية نيسان/ أبريل ١٩٧٨) فقد كنت أنظر إلى الظاهرة الجديدة من هذه الزاوية التي تمتد في الحقيقة إلى أبعد من جمال الدين. وكان غضب الخميني على ما كتبت نذير شؤم بأن هذه الثورة قد تفلت من موروثها القريب والبعيد معاً. إن الخميني الذي كان يعي جيداً طبيعة تلك الحركات وأهداف قادتها الأثمة قد وقع تحت تأثير سلفي قادم على الأكثر من العالم السنّي: حركة الإخوان المسلمين، وحركة المودودي، وعززه الغياب المبكر للطالقاني وقبله على شريعته الذين اغتيلوا بمهارة فائقة، الأخير قبل انتصار الثورة والأول بعد انتصارها.

وكان لمؤلفات السلفيين السنة كالمودودي وسيد قطب دور مهم في تشييف كوادر من الشوار الإيرانيين. ويتجاري مع هؤلاء لاهوتي شيعي كبير هو محمد باقر الصدر نبغ في العراق مع اشتداد حركة مكافحة الشيوعية التي قادها المرجع الديني محسن الحكيم وكتب مؤلفات استمدها من أفكار المودودي والإخوان رد فيها على الشيوعيين. وهو الوحيد الذي كتب في هذه الأمور من بين فقهاء الشيعة العراقيين الذين انهمكوا في القضايا الفقهية والكلامية البحتة البعيدة عن معارك السياسة منذ اعتزالهم للعمل السياسي بعد رحيل الخالصي. وقد أعلن الخميني في وقت لاحق يرجع إلى السنين الأخيرة أن محمد باقر الصدر هو معلمه. ويكرس هذا الإعلان خروج الخميني على خط

لاهورت التحرير الشيعي وتمسكه بمبدأ الحكم الديني البحت. وهو يسجل بذلك حالة شذوذ في الوضع السلفي حيث ينشفع الحكم الديني، المقبول من الغرب في الأساس، بخط عدا للغرب وضعه في تناقض دموى مع نظيره السعودي.

ويلاحظ مع ذلك أن موجة العدا للإسلامي للغرب التي أثارها الثورة الإيرانية أحدثت بعض المردود في الحركات السلفية الأخرى. ويمكن أن نضع في عدادها تحرك الإسلامبولي في مصر والغنوشي في تونس. إنما يحسن عدم المبالغة في الاتجاه الضد - غربى في هذا الوسط، لأن السلفية غير قادرة على الإفلات من قبضة الاقتصاد الكولونيالي الذي ترعرعت فيه رعجزت عن تقديم البديل عنه مادام اقتصادها الإسلامي، وبتصوراتها الملتبسة عنه، لا يخرج في منتهاه عن المبادئ العامة لهذا الاقتصاد. ومن المستحيل على حركة تحرر أن تستمر في مجابهة الغرب حتى النهاية وهي تشاطره منظومته الاقتصادية نفسها.

إن تعبير صحوة إسلامية مضلل: الغرب يستعمله عن جهل.. و شراخه العرب عن تقليد الجهل المعلم. إن الجماهير العربية لم ترتد عن الإسلام حتى تصحو وتعود إليه. وهي قد ابتعدت في العصر الحديث عن الدين وضعفت عندها نزعة الدين ثم استمرت على ولائها العفوى لهويتها الحضارية بمقوماتها الأساسية التي تحكم مجمل حياتها وتاريخها. ولم تحدث عودة إلى الدين بهذا الوصف السائب وغير المشروط. فالعودة سياسية ومشروطة بالسياسة. ولنرجع ثانية إلى إيران حيث بدأت الزويزة الراهنة:

انتفاضة التنيك فجرتها رسالة من جمال الدين الأفغانى إلى الميرزا حسن الشيرازى يخبره فيها بتسليم التنيك الإيراني إلى شركة بريطانية. وكان الشيرازى يقيم في سامراء بالعراق حيث مرقد اثنين من الأئمة الإثنى عشر. وعلى إثرها أصدر فتواه بتحريم التدخين. وكان الذى تولى تعميم الفتوى دخل إيران هم الوطنيون الإيرانيون من المتعلمين العلمانيين والدينيين. أما الجماهير ففهمت مقصود الفتوى، فتوقفت عن التدخين فى حركة إضراب شامل أدت إلى إفلاس الشركة البريطانية وانسحابها من إيران.

إن الالتزام الجماهيرى بالتحريم يفهم فى سياق حركة سياسية لا فى سياق النشاط الدينى العادى. ففى هذا الأخير اعتادت المراجع الدينية الكبرى إصدار فتاواها فى أمور معينة دون أن تقتضى استجابة شاملة من جمهور الشيعة. ويرجع ذلك إلى طريقة عمل المرجعية الشيعية التى تتمثل على الدوام فى عدد غير متعين من آيات الله يتكافأون فى المرتبة والمكانة أو يتفاوتون. ويكون لكل مرجع «مقلدون» أو «أتباع محتاطون»، وهم الذين يترتب عليهم الالتزام بالفتوى الصادرة عن المرجع حسب أصول الاجتهاد والتقليد فى المذهب الجعفرى. فمثلا، لو أفتى مرجع ما بأن البيع والشراء بالتقسيط حرام، فإن الامتناع عن هذا الأسلوب فى البيع والشراء يكون لازم لمقلديه وحدهم. وحين يكون لمرجع آخر اجتهاد مغاير أوصله إلى إباحة ذلك فإن مقلديه يفعلونه دون تبعة شرعية، لأنه حلال عندهم. ومسألة حرمة التدخين هى من هذا الباب. وكان يعاصر الميرزا الشيرازى أكثر من خمسين آية الله لكل منهم مقلدون، فلو كان التحريم الذى أفتى به جاريا مجرى الآلية الفقهيّة التى تسيّر الأحكام بموجبها، لكان اقتصر على مقلديه من الإيرانيين. وإنما حصل الإجماع عليه لارتباطه

بقضية وطنية مجمع عليها. وقد اعتبرت الفتوى لاغية بعد إفلاس الشركة وإلغاء امتيازها فعاد الإيرانيون إلى التدخين.

هل كانت هذه صهوة دينية من الإيرانيين؟ كلا، فهم شيعة محبون للأئمة ومقلدون للفقهاء قبل الميرزا حسن وبعده. والجديد عندهم هو هذا الحدث الذي تعرض له وطنهم وتولى قيادتهم في إبانه أحد آيات الله: الذي أصدر فتوى دينية ولكن في موضوع وطني، وأطاعته الجماهير بوصفه آية الله ولكن كقائد وطني.

في المشروطة: وهي الترجمة الإسلامية للحكومة المقيدة بدستور وبرلمان. وقد شاعت في إيران والعراق في أواخر القرن التاسع عشر. وكان يحكم إيران وقتها الشاهات القاجاريين الذي اغتيل أحدهم بأمر من جمال الدين الأفغاني. وفي ذلك الوقت كانت أفكار الديمقراطية قد ظهرت في العالم الإسلامي وأوجدت لها أرضيات خصبة في أكثر مكان. ونضج تيار سياسي معادي للاستبداد ويدعو إلى الحكم البرلماني والدستوري، احتضنته في إيران والعراق الحواضر الشيعية الكبيرة وتصدره الفقهاء. ومع أوائل القرن العشرين، وبالضبط عام ١٩٠٥، اندلعت ثورة المشروطة ضد القاجاريين تطالبهم بسن دستور وإجراء انتخابات برلمانية. وكان زعيم الثورة الملا محمد كاظم الخراساني، من المراجع الدينية الكبرى في مدينة النجف بالعراق.

واتبعت الثورة أسلوباً الانتفاضة الجماهيرية والعمل المسلح، فأرغمت الشاه على الخضوع لمطالبها. فشرع الدستور وأنشأ برلمان منتخب. إلا أنه عاد فتنكر له بدعم من روسيا القيصرية. فاضطر آية الله الخراساني إلى إعلان الجهاد. وقرر التوجه بنفسه على رأس جيش من المجاهدين من مقره العراقي إلى إيران. لكنه توفي في اليوم الذي أعلنه للتحرك، وانفجشت الثورة بوفاته.

كانت الجماهير الإيرانية تتأجج على بيانات وفتاوى الخراساني فتهتز الأرض تحت أقدام الشاهات. وما يعنيننا من دلالة هذا الحدث أن الخراساني لم يكن المرجع الديني الوحيد في زمانه. فقد كان معه في مدينة النجف آله الله السيد محمد كاظم اليزدي، وكان من أنصار المستبدة. لكن فتاواه لم تجد لها أصداء إلا في حوطة صغيرة من صغار المتعلمين في الحواضر الشيعية. وفي إيران وقف العديد من الفقهاء إلى جانب الشاه ونشطوا ضد الثورة. لكن الجماهير لم تسمع لهم: ترى لماذا كانت بيانات آية الله الخراساني من دون آيات الله الآخرين تحدث مثل تلك الزلازل الجماهيرية؟ إن التدوين وحده لا يصلح لتفسير الحدث، لأن الدوافع التي يفترض عندئذ أنها حركت الجماهير وراء الخراساني واردة بنفس الدرجة من الإمكان بخصوص آية الله اليزدي ونظائره داخل إيران.

إن نفس الإشكال يرد أيضاً بشأن مقاومة الاحتلال البريطاني في العراق عام ١٩١٥. وكانت النجف قد ثارت بوجه الاحتلال، بينما تعاون آية الله اليزدي مع البريطانيين، وكان من أشد أنصارهم في العراق. وقد تصدر المقاومة العراقية للجيش البريطاني عدد من آيات الله في المدينة نفسها وفي كربلاء والكاظمية. والتفت حولهم جماهير الفلاحين وأبناء العشائر الشيعية. ولم يلتف أحد حول اليزدي. ومقام اليزدي عند الشيعة كبير. ولما قدمت الدلائل في السبعينيات على أنه كان من عملاء الإنجليز صُعقت الأوساط الشيعية وتعرضت حياتي للخطر في بغداد وبيروت وكتب الصحف الدينية تتهمنى بالعمالة للاستعمار بدلا من آية الله محمد كاظم اليزدي. مع أن مصادر تاريخ العراق الحديث

مشحونة بالكلام عن خدمته للاحتلال البريطاني وقول زعيمة المخابرات البريطانية في العراق والعربيا
المس بيل أن اليزدي نعمة أنعمها الله على بريطانيا! ولعل الشيعة العاديين أنفسهم ما كانوا
مستعدين نفسيا للعن آية الله اليزدي، كما اعتادوا على لعن يزيد وابن زياد، لكنهم مشوا وراء
الخُرَاساني في ثورة المشروطة ووزاء آيات الله الآخرين في مقاومة الاحتلال البريطاني وليس خلف
اليزدي (انظر: حسن العلوي - «الشيعة والدولة العلوية في العراق» - فصل كاظم اليزدي).
جوهر الموقف إذن سياسى، وإلا لكان بمقدور اليزدي أن يحدث بليلة في وسط الجماهير الإيرانية
بفتاواه المؤيدة للمستبدة، وفي أوساط الجماهير العراقية في تعاونه مع قوات الاحتلال، مادامت هذه
الجماهير متدينة وتسلك في حياتها تبعا للأوامر والنواهي الشرعية.

في حركة تأميم النفط الإيراني عام ١٩٥١ بإمامة آية الله أبو القاسم الكاشاني، تجربة أخرى تثير
الدهشة. كان أبو القاسم ووالده السيد مصطفى من صدور المقاومة العراقية للاحتلال البريطاني. وقد
توفي الوالد بعد جولات مشهودة في ساحة المقاومة. وعاد هو إلى إيران. ومن نواميس المعشر
الشيعة أن المجتهد لا يحمل لقب آية الله إلا في سن متقدمة، على الأكثر بعد أن يتجاوز الستين.
أما المردود الجماهيري لفتاواه فيكون أوسع وأقوى بعد السبعين. وكان السيد أبو القاسم قد ناهز هذا
العمر عندما بدأ يعلن معارضته للشاه الأخير محمد رضا بهلوي، الذي نفاه إلى لبنان - لكن الضغط
الشيعة على الشاه اضطره إلى السماح بعودته من المنفى. وفي مطار طهران استقبله مئات الألوف
من الإيرانيين، ولما امتطى سيارته لم تتركها الجماهير تسير على التراب فحملوها على رؤوسهم.
وأخذ الكاشاني يحضر مع الدكتور محمد مصدق لزوجة تأميم النفط. وحدثت الزويجة على النحو
المعروف.

وكانت في كل مفصل حاسم من مفاصلها تتحرك وفق توجيهات وكلمات آية الله الذي قالت صحافة
أعدائه الإنجليز يوم ذاك: «إن كلماته قانون نافذ المفعول». ولما أقال الشاه حكومة مصدق بتدبير
بريطاني أعادها الكاشاني إلى السلطة في اليوم الثاني بمظاهرة جماهيرية. ووقف الشاه والاستعمار
البريطاني عاجزين عن مصدق مادام الإمام وراءه. ثم حدث التحول في موقف الكاشاني، لسبب ما،
فسحب تأييده لمصدق. ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى استطاع الشاه إسقاطه واعتقاله ومحاكمته
دون أي رد فعل جماهيري.. وانزوى الإمام في منزله بعيدا عن السياسة. ولما توفي لم يشيعه أحد
من أولئك الذين حملوا سيارته على رؤوسهم، ومات كأى فرد عادى من سواد الناس.
هل حملت الجماهير نية سيارة آية الله على رؤوسها بدافع ديني؟ إذن لماذا لم تحمل جنازته
والجنازة من السيارة؟

سؤال يتعذر على الغرب وشراحه من العرب والمسلمين أن يجيبوا عنه. وهم سيكونون عاجزين عن
إجابة الأسئلة التالية أيضا:

السيد كاظم شريعت مدارى أعلى مرتبة من الخميني، فهو قد توصل إلى درجة «آية الله العظمى»
التي لم يصلها الخميني حتى وفاته. وكان هذا المرجع الكبير يميل إلى بقاء حكم الشاه. ولما حاول
التدخل في الأحداث إبان حكم الثورة لم يتابعه أحد، فقد كانت الجماهير الإيرانية تمشى مع الخميني
الأدنى مرتبة منه.

فى الوقت نفسه: كانت هناك تنظيمات يسارية كفوءة وجريئة وعالية التنظيم خاضت نضال مسلح ضد الشاه عندما كان الحمينى يعيش منفيًا فى النجف، لكن أيا منها لم يتوصل إلى أحداث المد الجماهيرى الذى أحدثه الحمينى وهو فى منفاه.

أظن أننا الآن قد اقتربنا من حاجز السر الخفى :

جماهير الشيعة هذه فى العراق وإيران، ولبنان أيضا، تحمل هوية إسلامية تحدد وعيها الحضارى، وهو وعى حضارى - إسلامى، بمعنى أنه وعى مضاد للغرب. وهى تضيف إلى هذا العداء للغرب، عداءها للسلطة المحلية بحكم أنها تنتمى إلى بيئة تتلبس حس المعارضة، التى نفسها بالولاء لآية الله ومقت السلطان. ولما وصلت إليها أفكار العصر الحديث عن الوطنية والديمقراطية قماحت فى ذهنها مع ذلك الحس المغموس فى تراث المقاتل، وهذه الجماهير مسكونة إلى ذلك بالإيمان بالدين مع حب أهل البيت كشخصيات إلهية، لكن أيضا كرموز لقيمتها المشاعية واللقاحية: من حيث أنهم، كما تمثلتهم فى ذهنها، كانوا خارجين من ترم التملك إلى ترم الفقر، ومن حد السلطة القاهرة إلى الوشائج الطبيعية مع الناس، تطمئن إليهم نفس الخائف وهو يهرب فى حلمه الدائم من دموية السلطان إلى بساطة الإمام.

هى إذن ليست جماهير سهلة التركيب حتى تصدق عليها وصفة سريعة لجمهور أسمى متدين يقوده رجل الدين إلى حثفه أو نجاته وهو معصوب العين فى الحالتين.

إن إيمانها الدينى يجعلها شديدة التعلق بالفقيه. ولو أنها قد لا تكون مثدينة بشروط الأحامس، وتعارض قيمها الحضارية مع الغرب يتداخل فى الوعى الوطنى الحديث فيجعلها مستجيبة فى ساحة العمل الوطنى، بينما حس المعارضة ومقت السلطان يجعلها جاهزة لمنازلته.

ومن هنا: فهى تثور مع الفقيه الذى يدعوها لمحاربة الغرب أو الحاكم. ولا تتحرك مع الفقيه الذى يدعوها إلى التصالح مع الغرب أو الحاكم.

لكنها فى نفس الوقت لا تملك الأساس النفسى المتوخز للنهوض مع أى كان خارج هذه العلاقة الحرجة، لذلك تفشل القيادات العلمانية فى تعبئتها، كما يفشل المرجع الدينى الرجعى فى تكتيلها وراءه لخدمة مستعمر أو طاغية.

إن النموذج الأكمل لهذه الظاهرة هى إيران كما تبين لنا التجارب المشروحة أعلاه. أما العراق فقرأنا غراره السياسى فى مقاومة الاحتلال البريطانى التى دامت من ١٩١٥ - ١٩٢١ وتوجت بشورة حزيران ١٩٢٠ التى أنهت الاحتلال، ولو أنها لم تحقق الاستقلال الكامل للعراق، ثم انسحاب فقهاء الشيعة العراقيين من العمل السياسى فى ذلك الوقت. وثورة العشرين هى الثورة الشعبية الوحيدة فى العراق الحديث، وما تلاها كانت انتفاضات موضعية أو مظاهرات طلبية قادتها الأحزاب العلمانية التى تشكلت بعد انسحاب الفقهاء. أما ثورة قموز التى أطاحت بالنظام الملكى، فهى انقلاب عسكرى عوض عن غياب الثورة الشعبية بالإنجاز بعض أهدافها بواسطة الجيش. وفيما يخص المد الشيعى الجارى فى العراق، فقد جاء ردا على طائفية النظام السياسى. ولا مجال لتصنيفه فى خط ثورة العشرين لأنه لم يطرح مطالب وطنية، وقياداته مرتبطة بالغرب أكثر من ارتباطها بخط الحمينى،

وليس لهذا التحرك آية الله، والحبر الأعظم فى النجف وهو أبو القاسم الخوئى واصل حتى وفاته نهج الفقهاء بعد ثورة العشرين فى الابتعاد عن السياسة.

أما فى لبنان فلم يكن رجال الدين الشيعة قادة دينيين بقدر ما هم ذوو اختصاص فى الشقافة الشيعة. وقد خلا جبل عامل من مرجع دينى كبير بمرتبة آية الله. لكن الثورة الإيرانية دفعت بالجماهير الشيعة هناك على خط الحمينى. وجاء النهوض الكبير مع الاحتلال الإسرائيلى للبنان وتسلط الانعزاليين على بيروت بقوة الاحتلال. وقد نهضت حركة أمل أول الأمر بوصفها التنظيم السياسى الأوعب للشيعة. والتفت الجماهير حولها لما أقدمت على طرد الانعزاليين من بيروت الغربية وأعادتها إلى الوطنيين. وكان حزب الله قد تشكل فى ذلك الحين، لكن جمهور الشيعة بقى ملتفا حول أمل لأنها كانت الصيغة الأنسب لجماهير إسلامية غير مقيدة بفروض التدين المتمسك بها حزب الله.

ثم طفقت قيادة أمل تتورط فى سياسات ملتبسة تأوجت بالانزجاج فى حرب مع الفلسطينيين، بهدف تجريدهم من السلاح. وبسبب ذلك اهتزت مصداقية الحركة فأخذت تتقلص بينما يكبر حزب الله، إلى أن اختلت الموازين فى الوسط الشيعى لصالح هذا الحزب، الذى يمثل الحمينية فى مآلها الأخير، الجامع بين مشروع الحكم الدينى ومعاربة الغرب.. وكان ميل الجماهير الشيعة فى لبنان هو معاربة الغرب ورموزه اللبنانية التى اعتصرت الشيعة بوجه خاص، دون الالتزام بخط غربية على تراث الشيعة المعاصر. ولو أن حركة أمل واصلت نهجها الأول لبقى حزب الله صغيرا.

أحسب أنى قد وفقت حتى الآن فى رسم الصورة الحقيقية لما يسمى صحوة إسلامية فى العالم الشيعى، الذى انطلق من المد السلفى الراهن.. وأواصل فيما يلى حديث العالم السننى وسلفياته.

جماهير المسلمين السنة تشارك الشيعة هويتهم الحضارية كمسلمين، وتختلف عنهم فى خصوصيات تراثها وأيديولوجيتها المتماهية فى خطين: خط ممارسة السلطة، لأن أهل السنة كانوا هم الحكام والشيعة والفرق الإسلامية الأخرى هم المعارضين. ويتبعه خط ثانى ناتج عنه وهو مفهومهم للطاعة، فالحاكم المسلم عندهم واجب الطاعة بصرف النظر عن سياسته. يعنى أن الطاعة تشمل العادل والفاسق معا. وقد تبلور هذا المفهوم فى عصور متأخرة، لأن ثلاثة من مؤسسى المذاهب السنية كانوا فى صف المعارضين وأفتوا بخلع خلفاء زمانهم وأيدوا الخروج عليهم. أحمد بن حنبل وحده أجاز الصلاة خلف الحاكم الفاسق. لكن اجتتهاده فى هذه المسألة صار فيما بعد معمول به فى سائر المذاهب السنية. ويمكن توقيت هذه السيادة لمبدأ الطاعة بالعصر السلجوقى. ولو أن الوسط السننى لم يخلو من فقهاء عظام ناهضوا الاستبداد وأفتوا بخلع طاعة الملوك الطغاة فى عودة إلى سنن الأوائل كانت تتكرر فى كل حقبة وفى أى بلد حتى اليوم. وإلى هؤلاء القلائل يرجع الفضل فى الحفاظ على البقايا اللقاحية فى العالم السننى.

الجماهير السنية خاضت حروب المقاومة المبكرة ضد الغزو الأوروبى تحت قيادة زعمائها السلفيين. ولما انكفأت السلفية بعد الهزيمة واندماج اقتصادها الآسيو - إقطاعى بالاقتصاد الكولونىالى الذى دخل مع الاستعمار، حافظت الجماهير على هويتها الحضارية فى مواجهة الغرب. ومع وصول الأفكار الوطنية الحديثة من أوروبا، لم تهتز هوية الجماهير وإنما تعمقت بروح الكفاح الوطنى، الذى تصدره الآن زعماء

من خارج الوسط الدينى اعتدنا على تسميتهم بورجوازيين وطنيين. وهم فى الحقيقة يتوزعون على فئتين: بورجوازية كولونىالية، وقيادات وطنية. وربما تجاوزت الفئتان فى حركة واحدة قبل أن تنفرضا بفعل السلطة، فيصنفى الوطنى ويحكم الكولونىالى. وغالبا ما تأتى الفئة الوطنية من وسط قريب من وعى الجماهير ولم يتأثر كثيرا بالثقافة الغربية. ومثاله مصطفى كامل وسعد زغلول فى مصر، وصالح بن يوسف فى تونس، والشريف حسين فى العربيا.. وأود التنبيه إلى عدم تأييد سعد زغلول لطله حسين، الذى وقفت معه الحركة والأحزاب الموالية للغرب. وكانت الأطراف المتعارضة قد أساءت فهم نهج طلّ حسين، الذى أرادّه هو لتحديث الفكر العربى فى إطار هويته الحضارية، وأرادّه بعض مؤيديه تبعية للغرب. وتكوين طلّ حسين ينأى به عن التبعية لأنه متأصل فى التراث. وقد تأكد ذلك بانتمائه لاحقا لحزب الوفد دون التخلّى عن مشروعه الحدائى.

معروف اليوم أن القيادات الوطنية تبرجت كلها واندمجت فى الاقتصاد الإمبريالى، وفى أكثر من موقع تمكنت من تنحية، بل وتصفية بقايا الوطنيين الخالص لتنشئ كيانات عربية تامة التبعية للغرب، لكن الجماهير لم تبدل ولاها، وأخفقت خطط استتباعها التى نفذتها أكثر من جهة وبأكثر من وسيلة. واستمر عندنا بمقدور أية قيادة تريد أن تحرك الجماهير لمواجهة عدوان إمبريالى أو إنحياز تحرر وطنى، أن تجد وسط ملائم يمكنها من الأداء. وقد دعمت الجماهير قيادات علمانية قادتها فى هذا الدرب حيثما اقتنعت بعدم ارتباط القيادة بالاستعمار الغربى. وبالطبع فقد تكون قناعتها خاطئة إلا أنها لا تتحمل مسئولية وطنية عن الخطأ، لأن الجماهير قد تقع ضحية تضليل سياسى، من قبيل ما يحدث فى موجات الصراع العابرة بين بعض الأنظمة والغرب. ولجّاح التضليل لا يرجع إلى جهل الجماهير، كما يفهمه بعض الكتاب، بل هو دليل آخر على وطنيتها. ولنتذكر أن أخطاء كهذه يرتكبها المثقفون والقادة السياسيون فتوقعهم فى كوارث، بينما الخطأ الجماهيرى لا يؤدى فى أسوأ الحالات إلى أكثر من إحباط مؤقت.

وفى حالة صراع عابر كهذا نقطة جديرة بالاعتبار. فالهزة التى يحدثها تحرك قائد عربى تزيد فى المعتاد على ما يحدثه تحرك قائد مسلم غير عربى. وهنا يبرز العنصر القومى فى ساحة النزال مع الغرب، وهو جديد فى هذه الساحة، لأن المسلمين فى العصور الإسلامية كانوا يقارعون دار الحرب - الكفر بوصفهم مسلمين فقط. وكان الحدث يقع فى آسيا الوسطى يترك نفس مردوده فى العراق أو بلد عربى آخر. والتمايز القومى برز كشغور عادى فى السابق، إلا أن تطوره كهوية هو من نتاج العصر الحديث، وتختلط هذه الهوية مع الإسلام دون أن تخترقه كتراث. والحضارة الإسلامية مش عربية إلا فى اللغة، فهى إنحياز تساهمى لشعوب عديدة بينها العرب. لكن التراث الإسلامى هو نفسه التراث العربى الذى يزيد عليه بالتراث الجاهلى. وهذه الزيادة مندمجة بدورها فى تراث الإسلام الذى استدمج التقاليد الجاهلية عن طريق عنصره المعارض، فضلا عن امتداداتها فى منظومته الأخلاقية والفقهية. وتتكامل الهوية القومية مع الإسلامية فى معاداة الغرب لأن الهوية القومية مش هى الفكر القومى، إذ أنها تكوين تشرىخى نضج فى وعى الشعوب بفعل الرأسمالية. أما الفكر القومى فهو تكوين كولونىالى يتأسس فى الارتباط مع المتروبول الغربى - الرأسمالية الأم. وقد مالاً القوميون الشرقيون الاستعمار الغربى: حزب الكومنتانغ فى الصين، قوميو الهند الصينية، القومية الفارسية

بريادة الشاه، الطورانية الحاكمة في تركيا، الطاشناق الأرمن، قوميو النهضة العربية بقيادة الشريف حسين، عدا الشريف نفسه، المحصرية والعفلقية، والقوميين الأكراد بتنظيماتهم القائمة في كردستان والعراق وإيران. وليس للفكر القومي والسياسة القومية مفعول إلا بالتعارض مع قوميات شرقية مجاورة، حيث يتركز العداء في الوسط القوميين العربى ضد الفرس والأكراد واليهود - كيهود لا كإسرائيليين - أكثر مما يتوجه ضد الغربيين، بينما تقف الجماهير العربية ضد الحكومات القومية القائمة، وضديتها تأتي من رفضها للفكر القومي والسياسة القومية المستندة إليه، وليس من رفض للهوية القومية يفتن، كما يصادر الحمينيون، بالعودة إلى الأيديولوجيا الإسلامية. وتكشف الجماهير عن قدرة ملحوظة على فرز التبنينات السياسية لأن هويتها القومية تنفعل فقط في قضايا التحرر القومي المطروحة في ساحة الصراع مع الاستعمار، والناشئة أساسا عن التحدى الإمبريالى الغربى. مما يعطى دليل آخر على عدم تغلغل الفكر القومي فيها.

وماذا عن المروجة السلفية في العالم السنى؟

كان الحزب السلفى الوحيد في العالم العربى حتى السبعينيات هو الإخوان المسلمين، التى تشكلت في مصر وفتقرت عنها فروع في سوريا والأردن والعراق. وفي مصر نجح الإخوان في تطوير تنظيم جماهيرى وضعهم في مقدمة القوى السياسية الفاعلة. أما في البلدان الثلاثة الأخرى فلم يحالفهم التوفيق، سوى أن التنظيم السورى نشط في موجات نشاط مسلح في السبعينيات. ومع أن نشاطه اتسع وطالت مدته فإنه لم يفلح في التحول إلى حزب جماهيرى. ثم بدأ الفرع المصرى يتفكك مع بأس الجماهير منه لتظهر على هامشه تنظيمات سلفية صغيرة لم تتمتع بشعبية واسعة. لكن مصر شهدت مد سلفى يسبق الثورة الإيرانية استمر ناشطا رغم أنه لم يتبلور وعانى من عدم الانسجام الذى منعه من التوحد تحت قيادة كلبانية توجه فعالياته وتنظمها.

عندما كان الحمينى يترك أبواب طهران، كانت الجماهير في العالم العربى قد وصلت إلى حالة اليأس من قياداتها اليسارية والعلمانية. ذلك اليأس الذى دفع مغنى يسارى محترف كالشيخ إمام أن يرفع عقيرته منشدا من أعماق مصر المكبوتة: «آه لو كان الحمينى عمنا!».

كان هناك تعويل على الثورة الإيرانية في العالم العربى متأثر بطابعها التحررى قبل أن تنكشف بالوجه الدينى الذى أخذت الثورة تتلبس به بعد عامها الأول. أما تأثيرها على المد السلفى في العالم السنى فبقى محدودا بسبب الحاجز الطائفى. لكن المد أخذ يرتفع مع الجو العام الذى أحدثته الثورة في عموم العالم الإسلامى. وبلغ ذروته في الجزائر مع بروز الجبهة الإسلامية التى أطرت حالة غليان جماهيرى معادى للنظام واقتصاده التابع وأيديولوجيته الفرائكوفونية. وكان يمكن لهذه الحالة أن تفرز قيادة أخرى. وليس لدى معلومات كافية عن الكيفية التى ظهرت فيها الجبهة الإسلامية بدل أن يأخذ الغليان الجماهيرى مداه التحررى تحت قيادة وطنية. والإسلام في المغرب العربى هو مناهة هوية حضارية شديدة الحساسية تثبتت في أتون النضال ضد التسلط الفرنسى ولم يطرح في أى وقت كمرجع وحيد في الدولة. وليست لدى القناعة بأن الملايين التى صوّتت للجبهة الإسلامية في الانتخابات الأخيرة كانت تريد التوسع في بناء المساجد وإقامة الصلوات وتدمير مظاهر الحضارة

الحديثة، لأن مثل هذه المطالب لا تنطرح على نطاق جماهيري وإنما فنوى، والفعالية الرأس فيها تكن للغوغاء الدينية لا للجماهير.

لا ينبغي أن نهمل على أى حال أن ردود الفعل قد تدفع إلى سلوك النقائص. وهذا طبيعى فى الإنسان. فلا غرابة أن رأينا المد السلفى يجد له مواقع داخل الجماهير فيوسع من رقعة التدين، بل ويدفع بأعداد غير مألوفة فى الوضع الاعتيادى للمطالبة بتطبيق أحكام الشريعة. لكن النقيض لا يستغرق رد الفعل بأجمعه، كما أنه لا يدوم، لأن رد الفعل موقوت بالهنيئات النفسية السريعة، التى لا تصلح للتأبد مثل هنية كيركجارد. ولاشك أن الجماهير التى تنفست على امتداد هذا القرن بمطالب الحياة الحديثة لا تتحمل الرعوية السعودية. فهى جماهير علمانية فى تشكيلها الحياتى والسياسى معا. وليس أدل على ذلك من اصطفاها مع حكم لا دينى كان قد خاض حرب ثمان سنوات ضد ثورة إسلامية تطبق حكم الشريعة، كما حدث فى إبان أزمة الخليج.

إن الجوهرى فى جميع هذه المعادلات العسيرة هو الكفاح ضد الغرب بسياسته الاستعمارية واقتصاده الرأسمالى - النهبى والعتاة المحليين من أتباعه. وما يحدث الآن على يد السلفيين هو محاولة لتوظيف غليان وطنى يطرح مطالب تبدو من جنس مطالب الجماهير فى المظهر إلا أنها مقحمة عليها لأنها من جوهر آخر غير ذلك الذى يتقوم فيه الوعى الجماهيرى فى المعتاد. وبين الطرفين بون شاسع: القياادات السلفية ترجع إلى اقتصاد كولونىالى تتحرك داخله، ولها بدورها نصيب فى خيراته. وهى فى جملتها الغالبة على صلة بالسعودية، ويصعب العثور بينها على غرار إسلامى للحياة الراقية كالذى نعرفه فى أبو ذر الغفارى أو حمدان بن الأشعث. فشخصية القائد السلفى هى شخصية رجل الدين كما تحدث عنها أبو العلاء المعرى فى لئانذيتها وحسيتها المفرطة واقتارها إلى القيم الروحية التى يُنفسنها فى الفرد سموه الفكرى وأشواقه الإنسانية.

فى المقابل: ملايين من الناس يعرکہا الجوع والقمع والتسلط الأجنبى. غير قابلة للدمج فى الاقتصاد الإمبريالى، لأنها تعيش على هامشه وفى أطرافه كمادة خام يتوقف عليها ازدهاره، ومحال عليها من ثم أن تتمتع بمزاياه بقدر ما هو محال، وبالنتيجة اللازمة اقتلاعها من ثقافتها واستتباعها لقيم الغرب.

إن المنجزات التى حققتها الجبهة الإسلامية فى الجزائر فى الانتخابات تؤشر مفارقة مهمة، ذلك أن إغلاق الحممات والنواذى وقرض الحجاب ومطاردة المفطرين فى رمضان، هل ما تحلم به فئة من العاكفين فى المساجد أو المتأخرين فى المدارس الدينية ولا تستوفى تطلعات جمهور أوسع. ومن جهتها، لا تجد قيادة سلفية أكثر معها. والمفارقة تتم عن مأزق سوسىولوجى إذ يتعين على المراقب الافتراض أن ملايين الناس قد تخلت عن مجمل وضعها الطبيعى كجماهير وألغت مطالبها الحيوية التى تدفعها للتخراط فى النضال السياسى، لأجل أن تسهل على قادتها اتخاذ بضعة إجراءات تستجيب لمشاعر المتدينين تساعدهم على أداء العبادة دون مكدرات علمانية.

من جهة أخرى، لا نجد فى تاريخ السلفية السنية المعاصرة قصة نضال وطنى كالذى خاضته الجماهير فى معظم البلدان العربية بقيادة العلمانيين. ولا يجوز إدخال هذا التاريخ فى تاريخ السلفية الأولى التى قادت التصدى للغزو الإمبريالى فى البدء، بالنظر للفارق النوعى بينهما كما بيناه. ويبدو الوضع

فى أيامنا هذه أكثر نحوسا لعامة السلفيين. فالمنظمات والشخصيات السنية عارضت ثورة الخمينى وحاربتها على أكثر من جبهة: ثم تعاطفت معها لما ضرت اليسار والقوى الوطنية العلمانية وكشفت أكثر عن جوانب مشروعها الدينى. وليس بين القوى الدينية القائمة من يتمتع بزخم عدا حقيقى للإمبريالية عدا سلفية إيران بقيادة الخمينى وورثته الذين يقعون الآن خارج السلطة. ولا يخامرنى شك فى أن جملة هذه القوى ملظومة بخيط سعودى بما فيها الحركات الشيعية العراقية، التى أقامت لها مندوبية فى المملكة العربية السعودية إلى جانب مندوبيات الإخوان المسلمين وغيرهم مستفيدة من ظروف حرب الخليج. وأود على أى حال أن لا ننسى الاستثناء المهم فى لبنان حيث يقود حزب الله، وربما مرشده فضل الله بالذات، نضال يومى ضد إسرائيل والغرب فى ظروف حصار عديد الأطراف.

بقى علينا أن نختبر الخمينية ذاتها :

إن السيد روح الله الموسوى الخمينى قد قام بعمل تاريخى لا يقدر عليه إلا القادة العظام. ومن الظلم مقارنته بأى قائد ظهر فى ربوعنا طيلة نصف القرن الأخير، من فيهم جمال عبدالناصر الذى أنجز انقلاب عسكري سهل ضد حكومة متهاوية. وكان الخمينى مدفوعا فى عمله ببغض الملوك ومقت الاستبداد ومعاداة الاستعمار الغربى بقيادة الولايات المتحدة. فهو من هذه الجهة قائد وطنى مرموق يندرج فى سجل القادة الأجلاء للعصر الحديث، أمثال عبدالقادر الجزائرى وعبدالكريم الخطابى وعمر المختار وسعد زغلول.

ورجل دين، انفرد الخمينى بمسلك روحانى يبعده عن لذائذ رجال الدين وحبهم للأبهة والبذخ. وكان قد درس التصوف وتعمق فيه، وهو وداسة غير لازمة للفقهاء، فلم يتزوج أكثر من مرة واحدة، وعاش حياة بسيطة فى منزل بسيط يفتش فيه الأرضية ومنضدة كتابته دكة خشبية عديمة القوائم، وكان مقره الرسمى بعد نجاح ثورته فى حسينية غير مزخرفة يواجه الجمهور من شرفة فيها تخلو من أى أثر يدل على أنها مقر لحاكم أو قائد. وكان شديد الميل إلى الفقراء. ولما تلا آية المستضعفين واتخذها شعارا لثورته، فقد كان يعيها جيدا ويحملها حمل المصر عليها.

لكن الخمينى رجل دين. وترتب على هذه الصفة ثلاث مراتب عملية:

١ - مرتبة التكفير. ٢ - مرتبة الفقه. ٣ - مرتبة الحقيقة المطلقة. فى الأولى كان على الخمينى أن يتعامل مع القوى العلمانية بوصفها نتوءات مارقة، وأن ينظر إلى الوطنية من زاوية العمامة. وكان فى البدء قد سمح بفضح رجال دين غير وطنيين جرى التنديد بهم أحيانا على لسانه وسماهم وعاظ السلاطين. ومنهم المرجع الشيعى الكبير فى العراق محسن الحكيم. ثم أغلق الباب دونهم ومنع من فضحهم. وهو نفسه كان قد عانى أثناء إقامته فى النجف من مضايقات الحكيم المعروف بوشاتجه المتينة مع الشاه. وقد حرّم الخمينى أى اتصال مع القوى اليسارية التى وقفت مع ثورته ما لم تعلن التزامها بالإسلام، أى بالحكم الدينى. وشمل المنع وطنى إيران والعالم العربى. وفى الوقت نفسه انفتحت إيران على جميع رجال الدين الشيعة والسنة وجميع الحركات السنية، بصرف النظر عن اتجاهها السياسى وعلاقتها المشبوهة. وعندما كانت تتعرض للهجوم من هذه الجهات، ومعظمها ملزوز

بمصالح إمبريالية، كان الرد يأتي عتاباً أخوياً لتصرف ناتج عن سوء الفهم.

فى المرتبة الثانية للخميني، كان عليه أن يتصرف فى حدود الأحكام المقررة فى الفقه بخصوص القضايا الاقتصادية والمالية. ويأتى هنا الاختيار العملى لآية المستضعفين. إن غاية ما يسمح به الفقه للفقراء هو حصتهم فى الزكاة. وتبلغ هذه الحصة حوالى ٥٦٪ من مجموع نسبتها العامة وهى ٢,٥٪ من أموال الأغنياء. وهى الضريبة الوحيدة التى تجب على الأغنياء فى الشريعة الإسلامية. وإذا طبقت يجب إعفاء الأغنياء من ضريبة الدخل التى نسبتها أعلى، مما يؤدى إلى حرمان خزانة الدولة من مورد أساسى، مع عدم حصول الفقراء على الضمان اللازم ضد الحاجة والمرض، نظراً لضالة حصتهم من جسيمة الزكاة الضئيلة بدورها. والخميني معتقد أن الزكاة تكفى للفقراء لأن الشيعة يروون عن جعفر الصادق أن الله حَسَبَ الأموال والمساكين فوجد ما يكفيهم من كل ألف خمسة وعشرين ولو لم يكفهم لزادهم (بحار الأنوار للمجلس ١١/١٧٣ ط حجر إيران ١٣٠٢هـ). وحيث إن الواقع بدا له مغايراً للاعتقاد، لم يجد بد من السكوت.

لقد سبق لقرامطة العراق أن حملوا آية المستضعفين واتخذوها شعار لهم، من غير أن يقعوا فى مزقن الخميني، وهذا لأنهم لم يقفوا عند مبادئ الفقه فى تنظيم اقتصادهم وإنما رجعوا إلى المثل المشاعية السائدة فى البيئة والتراث لإقامة نسق اقتصادى منحاز فعلاً للفقراء. وكانت أمام الخميني أمثلة أبو ذر، الذى كان شديد الإعجاب به بحيث أنه رثى آية الله الطالقاني بعد اغتياله بقوله: «لقد فقد الإسلام أباً ذر آخر». لكن الشيخ عبد الحسين الأميني تمكن من إعادة أبو ذر إلى حظيرة الشرع حينما أول دعوته لتحريم الكثر بأنها كانت من أجل تكثير أموال أغنياء المسلمين، وذلك عن طريق استثمارها فى التجارة وعدم إبقائها محفوظة فى المكاثر. ومثل أبو ذر لا يخالف الشريعة التى أباح التملك.. أورد الأميني تأويله فى «الغدير» - ٣٧٩/٨. وهو موسوعة شيعية فى التاريخ والأدب مؤلف تجار الشيعة طبعها ونشرها على نطاق كبير وجنى منها المؤلف أموال طائلة. ولا بد لفقيه شيعى يحب أبو ذر من أن يرتاح لهذا التأويل الذى يبرئه من مخالفة الشرع.

مرتبة الحقيقة المطلقة التى يتبونها مؤمن بعقيدة تخلق فيه نزوع فاشى، ما دام قد تأكد لديه بإيمانه أنه وحده المحق وسائر الخلق مبطلون. وفى حالة رجل الدين يتقرر النزوع الفاشى على أرضية صلدة من الفكر الدينى: كان الصحابى سمره بن جندب (فتح السين وضم الميم. وضم الجيم والدال) قد تولى البصرة لزيد بن أبيية وبلغ عدد ضحايا من الشيعة والخوارج ثمانية آلاف. فجاء جماعة وقالوا له: ما تقول لربك غدا، توتى بالرجل فيقال لك هو من الخوارج فتأمر بقتله، ثم توتى بآخر فيقال لك ليس الذى قتلته بخارجى، ذاك فتى وجدناه ماضياً فى حاجة فشبه علينا، وإنما الخارجى هذا، فتأمر بقتل الثانى؟ فقال: وأى بأس فى ذلك؟ إن كان من أهل الجنة منضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار منضى إلى النار؟ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣٦٣/١.

إن الإعدامات الجماعية التى قامت بها الثورة الإيرانية ضد أشخاص النظام السابق والمعارضين الجدد، قد جرت تحت هذا التأويل. وقد صرح به حجة الإسلام محمد تقى مدرسى لوفد يسارى عربى التقى به قبل أن تصدر الفتوى بتحريم الكلام مع اليساريين. ومن اللافت للنظر أن القدوة الشرعية هنا جلال أموى، ذلك أن رجال الدين الإيرانيين لم يجدوا فى تاريخ أئمتهم ما يسد هذه الحاجة. إن

إمامهم الأكبر على بن أبي طالب حكم قرابة خمس سنوات كانت كلها حروب وفقن. وقد خاض الحروب على طريقته كعسكري محترف، إلا أنه لم يقتل أحد خارج ساحة الحرب. وامتنع حتى عن حجز أو سجن خصومه السياسيين عملاً بمبدأ من تشريعه هو يقضى بعدم جواز حبس المتهم إلا بعد ارتكاب جرمته. والجريمة التي كان يعاقب عليها على رفع السلاح. وهذه لم يعاقب عليها بالإعدام وإنما كانت تعالج بإرسال مفارز مسلحة لمقاومة المتمردين عليه، وتنتهي إما بقتلهم في المعركة أو هربهم أو أسرهم. وكان في الغالب لا يقتل الأسير وإنما يستصلحه كما سيفعل ماوتسى بعده بأربعة عشر قرناً. إن صفة رجل الدين في الخمسين تفسر المآل الذي انتهت إليه الثورة الإيرانية، والذي جعل الكثير من الإيرانيين يتمنون لو بقي لهم حكم الشاه بدلاً من هذه الثورة.

ليس بوسع الإسلام الحى أن يفعل أكثر من هذا إذا تسلم زمام التغيير في أى مكان، مع افتراض حسن النية أو شرف المقصد. وبعبارة أخرى فإن الفرار السعودي أخذ مداه الطبيعي في ظروف يتصنع فيها الغرب بإمكانات غير محدودة لتخديم القوى الناشطة في ساحتنا. ويهدف طريق الغرب إلى هذه الساحة حقيقتان: الأولى هي الدين. والدين بطبيعته قابل لدعم التسلط حيث يظهر تاريخ الأديان أن رجال الدين كانوا دائماً أقرب إلى السلطة منهم إلى الناس. والدين الإسلامى لا يختلف عن أى دين آخر، سماوى أم أرضى، في خصاله الجوهرية التي يتشكل منها كدين.

الحقيقة الأخرى هي ما ذكرناه قبلاً من عدم التناقض بين الإسلام والغرب في مجال الاقتصاد بالنظر لقيامهما على أصل واحد هو التجارة والملكية الفردية. وقد حظى «الاقتصاد الإسلامى» بدراسات عديدة من جانب أنصاره وخصومه تدور في جملتها على هذا الأصل الذي يتشارك فيه أخيراً مع اقتصاد القطاع الفردى والملكية الخاصة. والافتراق بين طرفين إنما يكون بافتراقهما في الاقتصاد. إن النظام الإسلامى في إيران بدورانه في دفتى «كتاب المكاسب» من منظومة الفقه لم يجد مفراً من الاندماج في الاقتصاد الرأسمالى الغربى.. ومع أنه تم على يد قيادة ذرائعية، فإن «خط الإمام» ليس لديه البديل الاقتصادى الجاهز لإدامة الانشقاق عن الغرب.

وهكذا فالإسلام الذى استفرغ قواه كلها في صنع هذا النظام العاجز في إيران، والمتسم مع عجزه بسمة إرهاب الدولة المستمد من الطبيعة الذاتية لقادته كرجال دين، يؤكد في عين الوقت عدم قدرته على مواجهة الغرب، فضلاً عن إقامة وضع تام الانفصال عن النظام الغربى المهيمن، وبالتالي تعذر أن يتصدر القيادة حاضراً أو مستقبلاً في معامع النضال الحاسمة لقطع اليد الغربية عن عالمنا وإقامة الوضع السوى والحياة الحرة المنشودة لشعوبنا.

ثم مدخل واحد أمام الدين الإسلامى للإسهام في هذه المسيرة هو لاهوت التحرير: أن يفرز الوسط الدينى رجال دين أحرار من طراز الخالصي والخراسانى والقسام، يستوعبون ضرورات التعاون مع القوى الوطنية لإنجاز هدف مرحلى أو مستقبلى دون إقحام الشريعة في المعصية. ومعروف أن ظاهرة لاهوت التحرير قد عمت أمريكا اللاتينية وأسهمت في انتصار ثورة نيكاراجوا وتقدم ثورة السلفادور، ثم كبحت بتدخلات الفاتيكان الذي يقوده بابا موالى للولايات المتحدة. وهو في المسيحية أيسر منالاً منها في الإسلام، وهذا لخلو الأولى من شريعة يلتزم فقهاؤها بأحكامها ويعتبرونها صالحة دون تحوير لكل زمان ومكان. ولو أنه لم يمنع من تنشأ اتجاه مماثل في الإسلام المعاصر.

وللمفكر والشاعر الهندي محمد إقبال نظرية تصلح لأدلجة لاهوت التحرير الإسلامى استمعت إليها مفصلة فى محاضرة ألقاها بحلته جاويد فى دمشق/ حزيران - يونية ١٩٨٦، خلاصها أن فى الإسلام ركنين: ثابت ومتغير. الثابت هو العادات، والمتغير هو المعاملات. ومؤدى النظرية أن الثابت فى الإسلام هو الدين الذى يلتزم المؤمن بفرائضه. أما المتغير فهو الحياة الاجتماعية المنظمة بشريعة الإسلام. والشريعة لا تكون ثابتة لأن الحياة تتغير وتستدعى قوانين جديدة لتنظيمه. لذلك قال إقبال بخلود الإسلام ولم يقل بخلود الشريعة. وما يراه إقبال متقرر فى مجرى التاريخ الفعلى، فالأديان باقية بينما الشرائع والقوانين تتغير من حولها.

ولعل الأسباب التى تفرض بقاء الدين هى نفسها التى تفرض تبديل الشرائع، وهى الحياة بمفارقاتها المعقدة التى تخلق لدى الإنسان العادى حاجة مزدوجة إلى حفظ علاقته مع السماء، وفى الوقت نفسه تغيير القوانين التى تنظم علاقته الأرضية. ويتمثل فى شخصية إقبال من يجهته مسلك «لاهوت تحرير» يستند إلى نظريته: فهو مسلم، مؤمن، صادق الإيمان، وهو مناضل ضد الاستعمار الأجنبى والاستغلال المحلى ومن أجل حكومة إسلامية عادلة تتبنى القوانين العصرية وتقبل من أحكام الفقه ما يتلاءم مع حاجات العصر. وله قصيدة عنوانها «لينين أمام الله» حاول فيها دمج رسالة لينين فى أشواقه الإسلامية المشوبة بمزاجه الصوفى (ديوان جناح جبريل - تر. عبدالمعین الملوحي. دمشق ١٩٨٧).

مهما يكن فإن بلوغ هذا الشأ فى وسط دينى يتطلب عقلية متعددة مصادر الثقافة قلما يتحلى بها رجال الدين. ويصعب التنبؤ إن كانت طريقة إقبال ستجد لها صدى لدى المؤمنين أو تتكرر غرارات الخالصى والحراسانى والقسام، قد تكون نضجت فى ظروف لم تعد قائمة اليوم.

يرجع الوضع الميئوس منه للعالم العربى إلى اقتصاده الطبقى. الكولنيالى الملحق بالاقتصاد الرأسمالى العالمى. أى إلى الفشل فى إيجاد الاقتصاد النقيض للاقتصاد المهيمن بما يسمح بالقطع مع المتروبول الإمبريالى الغربى باعتباره مصدر خرابنا الأوحى. إن هذه الحقيقة التى تحظى اليوم بتفهم متزايد من المناضلين المستقلين بفضل الأعمال المتكاملة لكل من مهدي عامل وسمير أمين ومريديهما الجدد من المفكرين السياسيين والاقتصاديين تتشوش بالانهيار الحاصل فى العالم الشيوعى، وعدم تقدم التنظيمات الشيوعية العربية بإجابات شافية تشكل ردها على الانهيار يتعدى الحديث الأحادى عن أزمة الديمقراطية فى التجربة الاشتراكية الحديثة، مع التمسك غير المفسر لدى البعض بما يسمى النظام العالمى الجديد. أى: النظام الرأسمالى المهيمن بقيادته الأمريكية الصاعدة.

هل للإسلام أن يحدثنا بشئ عن هذه الحقيقة يزيد بها جلاء فى الفعل الملموس؟

إن السلفية المسلحة تشاطر مداينها الرأسمالى الغربى فرحته بانهيار العالم الشيوعى. وتختلف معه فى اقتناص النتائج: الغربى يقول إنها دليل على صواب الفكر الرأسمالى وأبدية الاقتصاد الفردى. والسلفى المسلم يرى أن الشريعة يجب أن تملأ فراغ الشيوعية الوافدة بعد أن ثبت فشلها. لكن لما كانت الشريعة لا تملك اقتصاد بديل فإن مآلها الوحيد هو مواصلة الاندماج فى الاقتصاد الرأسمالى الغربى. ومن هنا قلت إن للسلفية «مداين» غربى، لأنهما مع اختلافهما فى الأيديولوجيا يرجعان

إلى «دين» اقتصادى واحد.

كان سمير أمين قد تحدث فى كتابه الأخير «ما بعد الرأسمالية» عن نجاح الصين فى فك الارتباط مع النظام الرأسمالى والتطور فى خط مستقل على أسس مستمدة من الاقتصاد الماركسى. ويتعين على أن أضيف أن الصين هى البلد الوحيد فى العالم الشيوعى، الذى لم يتعرض لانهيار اقتصادى، وأنه نجح فى تأمين الحاجات الأساسية للمليار نسمة دون أن يضطر إلى استيراد أية مادة استهلاكية حتى نهاية عام ١٩٧٩ حين بدأ الانفتاح الحالى، وأن ما يسمى بالأمن الغذائى المفقود فى بلدان عربية لا يزيد نفوس بعضها عن عدد المتسوقين صباحا فى شارع «وانغ فوجينغ» ببكين، هذا الأمن الغذائى مضمون للقارة الصينية كلها بما تنتجه هى لنفسها ضمن سياسة قطع الارتباط بالاقتصاد الرأسمالى.

ورغم التنازلات التى قدمت بعد الانفتاح للرأسمالية، فقد حافظت الصين على وتيرة نموها لأنها ما تزال بعيدة عن الاندماج الفعلى فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى. وقد ساعدها سحق حركة التمرد فى ساحة الأمن السماوى على التماسك أكثر لأن الحركة لو نجحت لكنت تسرع فى تركيز الاقتصاد الصينى لصالح الاقتصاد الغربى كما حدث فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، وربما كانت الصين ستعود إلى عهد المجاعات التى عاشتها قبل الثورة الشيوعية. وفى هذه التجربة مثال مفيد سنوذج قبل العودة إلى استجواب الإسلام.

إن السر فى تفرد الصين هو ابتعادها عن النموذج السوفيتى فى بناء الاشتراكية ونجاح ماوتسى تونغ فى تطوير اشتراكية صينية تبدأ من واقع الصين وخصوصيات بيئتها وتراثها. وحقبة الحال أننا لا نملك تصنيف قادة الثورة الشيوعية فى الصين كمجرد شيوعيين «بالوصف» السائب، الذى يصلح لكل من دعا إلى حكم الطبقة العاملة وأعلن اعتناقه للماركسية اللينينية. فهنا نقف على نعت اتصال ينشد به الشيوعى الصينى إلى حكمة الصين التى طورت مفهومات متنوعة فى السياسة والأخلاق والاقتصاد، تتوغل فى التكوين المعرفى والنفسى للمثقف الصينى الذى يتماس مع تراث حتى لم ينقطع إلا بحقبة انحلال قصيرة أعقبت وصول الاستعمار الغربى إلى القارة الصينية. وقد تصرف قادة الثورة الصينية كحكما صينيين بقدر ما كانت الماركسية تتعمق فى وعيهم كعنصر علمنة تأخذ به الحكمة الصينية مداها العصرى: فلا تنفلق الحكمة فى مناخها الإقطاعى ولا تتمكن الماركسية فى أحادية فكر أوروبى مقطوع الصلة بالقارات لأنه مكنتى ذاتيا، وتبعاً لذلك: متعالى الذات غير قادر على رؤية العالم من وراء مصادراته الانفرادية الخاصة به.

هنا يسعنى التأكيد على أن ارتهان هذه السيرة الكبرى باسم ماوتسى تونغ هو أبعد من ارتهان اعتيادى لحركة ثورية بموهبة قائد فذ. فالإنجاز فى جوهره وبالمستوى الذى نأزهر مدين لشخصية هذا القائد بخصوصياتها المحلية التى لم تتعرض لمؤثرات خارجية مغربة. وأقول خصوصيات محلية لأن ماو بدا أقدر على فهم الصين من رفاقه الذين تثقفوا فى الخارج. ليو شاشى وشوان لاي وخليفتهما دنغ شياو بنغ. وإنى لأجازف بالقول إن التحصيل الخارجى، فى جغرافيا ثانية، قد يهين للحصول على معرفة متقدمة. وربما أسفر عن عالم أو فيلسوف يفكر بعقل ثاقب ضمن التخوم المحيطة بمصدر المعرفة. إلا أن مثل هذا التحصيل قد يسبب خلل فى المعيرة يمنع من الرؤية المباشرة، الحية، للمعيش

الفعلی فی بلده . المحجوب عن مصدر تعلیمه بمسافة مكانية وزمانية تكفی لإحداث التشویش فی قیاساته . وإنی لأذهب إلى حد القول ، بعد تبرئة المنهج العلمی / المشترك للفكر البشری . إن معظم الذین درسوا مجتمعاتهم الشرقیة بمعرفة غریبة لم يتوصلوا إلى الحقائق الحاكمة فی تلك المجتمعات . لعل ذلك ما يجعلنی مقتنع بأن محمد علی الكبير كان يعرف مصر أكثر مما يعرفها رفاعة الطهطاوی ، وأن الصین لو تولاهما لیبو شاوشی وشوان لای منفردین لكان حالها الآن مثل حال فیتنام التي یعجز قادتها المثقفون فی فرنسا والاتحاد السوفیتی عن إشباع سكانها الذین یزیدون قلیلا علی سكان مدینة شانغهای ، وبعد أن مضى علی تحرير بلدهم الصغیر أكثر من عشرين سنة . وقد علمت من متابعتی لتجربة الصین علی صغیدها نفسه أن السید دنغ شیاو بنغ لم یکن له رأى مسموع فی حیاة ماو تسی تونغ . وكان هذا فی الواقع من حسن حظ الملیار نسمة . ولست متأكد البوم إن كان مجيء دنغ بعد ماو ضروری للانتقال إلى الطور الجدید فی حیاة البلاد . إلا أنى أعرف أن القدر المعلوم من إنجازات دنغ إنما ینهض علی البناء الذی بناه «الحکیم ماو» . وإن هذا البناء المتین الشامل هو ما یمنع سياسة الانفتاح من الوصول بالصین إلى ما وصلته شقیقاتها الشیوعیات . خلاصة القضية فیما یخص الصین أن نهوضها الكبير ما كان یتم لولا المارکسیة . والمارکسیة ما كانت لتفعل فعلها فی تلك القارة لو لم تتوطن بحکمتها وموروثها المشاعی وقیمها الحضاریة المستوعاة فی أذهان أهلها . وینبغی البحت عن سبب خارجى للاختلالات التي مرت بها وقر هذه البلاد سواء فی الثورة الثقافیة أم القفزة الكبرى فی الصناعة أم سياسة الانفتاح الدنفوی ، مع عدم إعطاء المدیرین ، وضمنهم ماو ، شهادة براعة من حماقات البشر .

نعود إلى استجواب الإسلام لتتعرف علی مكانته فی هذه الأيام العسیرة ..

إن ما ادعی الذرایة به من الإسلام هو ما أوجزته فی الصفحات الفارطة . وقد قسمته إلى فرعیین : الدولة كما وطدها الأمویون ومعها المدینة الإسلامیة ، ومعنی ما ، التجارة الإسلامیة . ثم القیم المشاعیة واللقاحیة التي تمسك بها المغلوبون فی هذه التحولات ، والذین مشترک بین الفرعیین . وعندما نأتى إلى دولنا القائمة فهی من الفرع الأول ، مع الأخذ فی الحسبان الدقیق أننا نتحدث عن موروثات لا عن وجودات متصلة . أما القیم فقد ذكرت أنها حاضرة فی البیئة الاجتماعیة والتراکمات فی التکوین النفسی : البیئة التي تأخذ بالكثیر من التقالید المشاعیة ، والتکوین النفسی الذی یمده اللقاح بکرة السلطة والرغبة فی الانفصال عنها .

واستدراکاً أقول إن دعاء المنابر بطول العمر والنصر للسلطان هو تدین یلعب فی خانة الأفراد ولا یعم الجماهیر إلا فی العلاقة مع الخارج .. وهذا الإسلام وبیئاته وموروثاته غیر معروف لحركة التحرر العربی بالقدر الذی عرفته الثورة الصینیة من موروثات حضارتها وحقائق بیئاتها المعلیة . ذلك أن القلیل جدا منا من یقرأ التاریخ المحلی . التاریخ الذی تعرفه أكثریتنا هو تاریخ أوروبا مع شیء من تاریخ العرب الحدیث . والقلیل جدا من ساستنا ومثقفینا من سعی للتعرف إلى الوسط الذی نعیش فیه مستفیداً من خبرة علمى الاجتماع والنفس . والوسط مرفوض من الجميع قبل دراسته لأنه مناط التخلف . من التباس فی معیار التخلف .. ویطبق علی المجتمعات العربیة علم الاجتماع الغربی ، لا

كمنهج، وإغما كعطيات ومقولات، بينما يستبعد مبدأ نفى النفى الديالكتيكي عند الكلام عن المراحل والتشكيلات فى العالم العربى وعموم تاريخ المنطقة. ويرجع مجمل هذه الالتباسات إلى المصدر الوحيد الغربى لثقافة السياسيين والمثقفين.

من الشخصيات القيادية الجديرة بالإشارة فى الحركة الشيوعية العربية مؤسس الحزب الشيوعى العراقى يوسف سلمان يوسف المعروف باسمه الحزبى (فهد). كان شغيل يد من أسرة مسيحية فى جنوب العراق. لم يحصل على تعليم منظم لا فى الداخل ولا فى الخارج. وكان يكتب بلغة ركيكة كثيرة الأخطاء النحوية والإعرابية، ولا يستشهد فى كتاباته بمرجع. ولما برز اسمه فى الحركة الشيوعية أوفد إلى موسكو للدراسة فى مدرسة كادحى الشرق، وهى مدرسة متواضعة تغطى المناضلين الشيوعيين دروس فى التنظيم الحزبى مع ملخصات عن الأيديولوجيا الشيوعية كما كان يفهمها ستالين، ومعلومات عن تاريخ العالم مستقاة أيضا من كراريس ستالين والكتاب الذين اشتغلوا فى معيته. وقد انتفع فهد بخبرات التنظيم الحزبى فى المقام الأول وطبقها بإبداع فى تنظيم الحزب العراقى.

ما يميز فهد هو «أميته». وهذه أعطته تفردا فى الوعى الطبقي لم يتكرر فى القيادات الشيوعية اللاحقة فى العراق. كما وفرت له حصانة جيدة فى ساحة النضال الوطنى والقومى: فى المنحى الأول سعى فهد لضمان النقاوة الطبقية للحزب باستبعاد «الأفندية» من عضويته أو على الأقل فى قيادته، وحاول أن يجعله تنظيم خاص جدا للعمال والفلاحين والفقراء. ومن أفكاره الحسوية هنا سعيه لتشجيع تأسيس أحزاب بورجوازية وطنية إلى جانب الحزب الشيوعى أراد منها أن تضم أولئك الذين يأتون إلى الحزب الشيوعى بدافع وطنى وهم من غير الطبقات الكادحة، لإبعادهم عن الحزب.

فى المنحى الآخر استطاع فهد أن يوحّد النضال الطبقي بالنضال الوطنى بالنضال القومى، وجعل مهمة الشيوعى تتسع لهذه الأهداف كلها دون أن تقتصر على الأطروحة الضيقة للطبقة العاملة فى بلد فلاحى مستعمر. وكانت إضرابات العمال فى عهده مزدوجة المطالب: لحقوق العمال، وضد السياسة البريطانية فى العراق. مما جعلها تتركز فى المؤسسات الاقتصادية الكبرى التى كانت تحت إشراف الإنجليز وهى: النفط والميناء والسكك، وفى ساحة العمل القومى وقف فهد ضد تقسيم فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل وأصدر بيانا من الحزب يدعو إلى النضال ضد التقسيم بعد إقراره فى هيئة الأمم المتحدة. وكان يصدر فيه عن موقف عفرى رافض للمشروع الاستعمارى فى فلسطين لم يتكيف سلبا بتخريجات أساتذته السوفييت لحشيشات المشروع، ولا إيجابا بكتابات ماركس ولينين المعادية للصهيونية، والتى لم يقرأها على الأرجح. وطرح فهد مشروع عملى عقلانى للوحدة العربية يقوم على الاتحاد وليس الوحدة الإندماجية، التى اضطرت الأحزاب الشيوعية فيما بعد إلى الزيادة بها على القوميين.

لكن فهد لم يكن يملك عبقرية ماو تسي تونغ التى ساعدته على مقاومة النفوذ السوفييتى فى الفكر والسياسة حتى يعم أكثر فى محليته. وقد منعه المناخ الستالينى المهيمن من أن يجد، وهو المسيحي الأصل، ما يستحق النظر فى الأناجيل الأربعة، أو أن يذهب إلى تاريخ العرب ليستخلص منه العبر، فضلا عن أن يربط حاضره بماضي. ولعل التاريخ المعمم للعالم كما قرأه فى مدرسة كادحى

الشرق، قد أغناه عن تفحص بيئته لاستقراء ما يعيش فيها من تقاليد وقيم وأخلاقيات... (أقول هذا وفى ذهنى رحيله المبكر حيث أعدمه النظام الملكى وهو دون الأربعين).

إن مثال فهد يوحى لنا بالأساس الذى يمكن أن ترجع إليه مدرسة سياسية تنصدها عناصر مناضلة لم تتأهل فى الخارج ولم يتشوش ذهنها بالمزيد من النظريات تكون قادرة على إبقاء صلتها بال جماهير بما لديها من لسان مشترك يفتح لها الفهم المتبادل لأنه سليم من رطانة «الأفندية». وفى هذا المثال أيضا نقرأ عوامل الفشل لزعامة بروليتارية وطنية شديدة الصلابة لأنها مع ارتباطها الحميم بال جماهير لم تنظر إليها فى خصوصياتها المحلية أو التشريعية، وإنما تعاملت معها من منظور الاصطلاح النمط، الذى استخدمت فيه كلمة «جماهير» فى الأدبيات السوفييتية، وهو اصطلاح ينطبق دون زيادة على أهل فنلندا والسكان الإسكيمو وفلاحى جنوب العراق.

فى هكذا مدرسة سياسية توجد ساحة عمل للإسلام لا يبعد أن تتكافأ مع ساحة عمل الحكمة الصينية والترات الصينى فى مدرسة ماو تسى تونغ عندما يتاح لها أن تفرز ما هو محلى مما هو معرّف فى ثقافة الخارج. إن الاقتصاد الإسلامى لا يوفر البديل عن الاقتصاد الغربى، وإنما يوفره الاقتصاد الماركسى. ونحن لكى نتحرر سنحتاج إلى الأخير مادام تحررنا مشروط بقطع الروابط مع الاقتصاد الرأسمالى الغرباوى. لكن الاقتصاد الماركسى لنجح فى الصين وفشل فى غيرها، لأنه هناك خضع لحكم البيئة وتخصّب بقيمها المشاعية. ولدى الإسلام فرص ممكنة للقيام بدور مماثل بعد استبعاد الدين/ ومن مزايا الصين خلوها من الدين/ وأتقدم فيما يلى بإحصاء أولى لما يشكل عندى مساهمة «الإسلام» فى تكييف حركة التحرر العربى على أرضية الوسط، ولعل غيرى أن يقف على ما هو أجدى وأنضج.

١. قيم اللقاح: وهى جاهلية كما رأينا، إلا أنها تحققت عمليا فى الإسلام من خلال مميّزة نبوة. ملوكية، ثم من خلال: خلافة. ملوكية دامت فى الحقبة المسماة خلافة الراشدين. وهذه التجربة لا تعنى السلفيين لأنها تخرج عن مفهومهم للحكم الذى يتمثل عندهم فى النظام السعودى، وعند الشيعة فى النظام الإيرانى القائم على التسلط والإعدام الجماعى. إن كُنْهية اللقاح هى الدولة البسيطة (التي يمثل تصورها فى الثورة الثقافية الصينية وجهها الإيجابى) مقابل الدولة المركزية التسلطة بأجهزتها المعقدة ومؤسساتها المتنوعة الضاغطة على حياة الفرد والمصادرة لحريته فى النهاية.

وفى الممارسة عند الراشدين نجد ما سماه أحمد صادق سعد «جمهوريات تسوية» أقامها الخوارج فى ربوع المغرب وعمان. ودولة القرامطة البسيطة شرقى العربيا، ودار هجرتهم فى سواد العراق. ولا ينصرف ذهن القارئ إلى أن مبدأ الدولة البسيطة هو شأن القدماء فى عصر السذاجة والطفولة البشرية. فالغالب على القدماء هو الدول الإمبراطورية المعقدة التركيب والعديدة المؤسسات. ومن السذاجة مقارنة الخلافة العباسية بدولة القرامطة أو خوارج المغرب وعمان، بل هى تقارن بالدول البيروقراطية المربعة التى تحكم فى القرن العشرين.

كان سلطان عمان الأباضى يعقد مجلسه خارج باب منزله فيمر به الناس ويسلمون عليه أو يجلسون عنده للتحدث إليه أو عرض مشاكلهم. أما الخليفة العباسى فكان يتوارى فى قصور

متداخلة وراء الثبات من الوزراء والولاة والضباط والحرس. وإذا أراد السهر للشرب والغناء جلس خلف ستائر بحيث يسمعه المغنون والندماء إذا تكلم ولا يرون شخصه، وكانت دار الخلافة التى تضم قصور الخلفاء ومقراتهم تشكل مدينة مستقلة داخل مدينة بغداد ويدير شئونها أكثر من عشرة آلاف موظف وشغيل. وكان من يشتم الخليفة العباسى يقتل ومن يشتم رئيس قرمطى أو خارجى يقال له: اتق الله.. إن اللقاحية لا تعترف باحتجاب الحاكم ولا تعطيه من الألقاب سوى ما يدل على منصبه كما لا تسمح له بالتميز فى معيشته. وقد قُدرت معيشة عمر بن الخطاب حين أرادوا أن يقرروا مرتبه بمعيشة رجل من قرش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم «أى معيشة وسط بلا شطف ولا ترف (الأموال لأبو عبيد ٣٤١). والحاكم اللقاحى هو نفسه الحكيم الذى أرادته الثاوى لقيادة الناس، لا لحكمهم. كيف تفرض الأنهار الكبيرة ملوكيتها على مئات الجداول؟

لأنها أوطأ منها.

ذلك ما يجعلها ملوكا على مئات الجداول.

فإذا شاء الحكيم أن يرشد الناس

فعليه أن يتضع

بحيث إذا كان فوقهم لا يثقل ظهورهم

وحين يكون فى الرأس لا يشعرون بالأذى

وعندئذ سيكون كل ما تحت السماء مسرورا لأنه مقود به

وقد تكون هذه يوطويا إلا أنها ليست انعكاس البساطة فى الحس أو السذاجة فى الفكر، فصاحبها فيلسوف خارج من ترم الأسطورة إلى ترم العقل المنظم. بل هى قدا تنقلت إلى دائرة الفعل فى منعطفات معاصرة كذلك التى شهدت حكم البلاشفة، وجمهورية ماو الشعبية وفيتنام هوشى ميخ. واللقاحية على أى حال تراث ملهم لا نظام جاهز للدولة. وحين يُقدر لفكرنا السياسى أن يستقل فى البحث عن النظم فسيجد بين يديه تجارب موحية يستهدى بها فى تشكيل صورة للدولة متطهرة من أسس الاستبداد والقمع، دون الاتكال على النسخة الكلية للبرلمانية الغربية التى يتقرر فيها مصير البلاد بفارق صوت واحد.

٢ - قيم المشاع : وقد تحدثنا فى الإفاضة عن تحريم الكنز وقمسك المشاعين المسلمين، بريادة أبو ذر، به. ونقلت مصادر التفسير وغيرها أن على بن أبى طالب ذكر الحد الأعلى المسموح باقتنائه من الأموال وهو أربعة آلاف درهم فى السنة، تبعا لأوضاع زمانه. والإسلام الغالب لم يعترف بالتحريم كما لم يتبنى القيم المشاعية فى اقتصادياته حسبما تقررت نهائيا فى الفقه. وإنما حديثنا عن الإسلام المغلوب الذى رفع أبو ذر وروزية الأصفهاني رايته. ويتصل هذا الاتجاه بمشاعية المسيح كما تعرضها الأناجيل الأربعة، وهى هناك مشروع متكامل لإقامة معشر شبيه بما أقامه القرامطة فى سواد العراق. والأناجيل من أسس المأثور اليهسلاوى ويقف المرء فيها على مصدر مهم للقيم المشاعية التى يتوق مسيحي أو مسلم علمانى إلى الانطلاق منها فى التنظيم الاقتصادى للمجتمع. وقد حُجبت هذه الفيوض الثرة عن عيون اشتراكييننا رغم أنها كامنة فى اللاشعور الجمعى لجماهيرنا، بسبب الهيمنة المطلقة للسوفييت على فكرنا الشيوعى. والسفينة هى المادية الميكانيكية المبتذلة كما عرفت فى

الغرب وثقفت بها أجيال من شيوعى الشرق الأوسط: عرب، فرس، أكراد، وأتراك حملوا اشتراكية غربية المزاج أرادوها بديل ساحق لجميع ما لدى شعوبهم من قيم طورتها حضاراتهم لألوف السنين. ويصعب على القول إنها اشتراكية ماركسية، بل إننا لنملك السبب الداعى للقول إن الاشتراكية السوفيتية كما قننها ستالين ورفاقه فى أوروبا الشرقية هى كائن غريب عنا بقدر غريته عن الماركسية، التى يجب أن تؤخذ فى تمايزاتها عن الفكر الغربى، وبكلمة أضبط عن القيم الغربية. ومعلوم أن مادىة السوفييت كانت قد أخذت بالتأرجح مع اكتشاف مقولات غط الإنتاج الآسيوى ونشر مخطوطات ١٩٤٤. ثم الأجزاء المغيبة من الغروندرسة. وهذه الأخيرة تبين كما يصادر ناشر طبيعتها الإنجليزية أن ماركس «إنسانى، ووجودى، بل ووجودى روحانى...» (٧) وليس قليلا هذا الإقرار من مؤلف غربى. والحقيقة أن الماركسية كما تبلورت فى أعمال مؤسسيها العظام: ماركس، المجلز، بليخانوف، لينين، وكما عرفها ومارسها جيل البلاشفة من الروس وغيرهم - روزا لوكسمبورج، كلارا زتكين، لونا تشارسكى.. إلخ - هى منظومة من الفكر الحى، المتحرك، والشمولى الديالكتيكى تتكامل مفاصلها دون تعارضات جوهرية. وهى تتسم فى جملتها باثنتين من السمات الكبرى.

..دقة منهجها العلمى .

..نزعتها الإنسانية .

وتجتمع فى أتمتها الأربعة صفة العالم الشديد فى صرامته المنهجية، وصفة الفيلسوف الإنسانى النزيه، المحب للعدل، والكاره للاقتراء والزيف والعدوان، إن فى العمل الفكرى أو فى النشاط البشرى العام. وقد أظهروا فى حياتهم كما فى كتاباتهم حساسية عالية ضد الجهل والظلم. ويوسفهم أهل علم فقد خضعوا لشروط التفكير العلمى الحازم ضد التبسيط والاستدلال ومنهج الشروح، وكانوا قادرين دوما على تخطى نظرياتهم وأصول مناهجهم لأجل الاستقصاء الأبعد لحقائق البحث، ولغتهم حيوية نابضة تتم عن شفافىة الفكر المترع بالقلبية الإنسانية. ويبدو أستاذهم كارل ماركس المتعلم لهيغل أقرب إلى أن يكون فيلسوف شرقى منه كتلميذ لعالم ألمانى كليانى القلب عنصرى التفكير. وأنا لا أقوم هنا باكتشاف، لأن كارل ماركس قد تتلمذ أيضا لجوته ذلك الحكيم العالمى الذى أعجبه ألمانيا ولكن لتدفع به بعيدا عن حدودها.

وقد لا يكون من الراجح تصنيف ماركس كفيلسوف غربى بتلك السجية المقتنة لهيغل وأسلانه التى تعطى لمؤرخ الفلسفة أن يتحدث عنه كأحد أحفاد توما الاكوينى. بل إنى لأظن أنه بقدر ما عاز على الماركسيين الشرقيين استيعاب منهجه العلمى قد تعذر على الغربيين هضمه كفيلسوف: حيث تتكشف منظومة الدفاع الذاتى للجسد الأوروبى عن رفض للقيم الشيوعية كامن فى حجارة النشأة الحديثة لأوروبا. ولعل الفقر ليس وحده الذى جعل لماركس ذلك الموقع الأثير فى الشرق الأقصى، بل هو التجانس. إن ما بين كتاب التاوى الأول والغروندرسة وشائج قرى تزيد على ما بينها وبين فينومينولوجيا الروح. تلك الحقيقة التى وعها عبدالكبير الخطيبى وهو يكتب «الصراع الطبقي على الطريقة التاوية».

ولست أظن أن كارل ماركس بأشواقه المشاعية المعطرة برائحة التراب الشرقى كان سيبدو غربيا على

«المسلمين» كما بدا في ثوبه السوفييتي المغربي. كان سيفهم في مسار تاريخ يبدأ من يسوع، الذي أقسم لوناتشاركسي أنه لو عاد اليوم لصار بلشفيا.. وفي أيامنا هذه تعلن أطراف اليسار العربي إفلاسها وتتقدم السلفية لتملأ الفراغ بنموذجها السعودي والإيراني، فإن عودة متزامنة لماركس الفيلسوف وتراثنا المشاعي - اللقاحي ستفتح صفحة مقروءة بلا لبس لكل من الأمي والقارئ.

لعل البعض قد طفرت إلى ذهنه للتو تسميات من قبيل اشتراكية عربية واشتراكية إسلامية. وأقول إنها أسماء ليست متناقضة في ذاتها/ كما سبق للماركسي البسيط جورج حنا أن اعتبر الديمقراطية هرطقة في المسيحية، والمسيحية هرطقة في الديمقراطية/ بل التناقض في استخدامها؛ فقد كان جميع الذين ابتدعوها، ومعظم الذين روجوا لها، أعداء للاشتراكية، وإنما حملوها للتشويش على الشيوعيين. ليس هذا فحسب، بل لعب معظمهم أشواطاً خيانية في كفاحنا ضد الاستعمار من وراء عدائهم للشيوعية الذي وحدهم مع المعسكر الغربي. ولو أنهم كانوا قد اختاروا هذه التسميات للاشتراكية عن وعي لجذورها في تاريخهم وبذورها في بيئاتهم المحلية لكانوا قد التقوا مع الشيوعيين بدلا من ذبحهم كما فعلوا. ولعلمهم كانوا سيتوصلون معهم إلى إيجاد شيوعة شبيهة بشيوعية الشرق الأقصى الآسيوية.

٣ - مبدأ زهد الحكام : مثلته قادة البلاشفة وشيوعيو الشرق الأقصى. وكان الخروج عليه في البلدان الاشتراكية بعد البلاشفة من مظاهر الانحراف الشنيع في البناء الاشتراكي ومن عوامل نفور شعوب تلك البلدان من «الاشتراكية».

المبدأ ظوره المسلمون وقد مر بنا أن معيشة عمر جعلت من الدرجة الوسطى بين الغنى والشظف. وكان هذا في خلافته. أما قبلها فكان يعيش حسب أوضاعه وإمكاناته دون تقيد إلا بالحد المانع من الوقوع في أميلوب الحياة الأرستقراطية كما كان يعيش أثرياء مكة قبل الإسلام، والحكام الأميون بعد الإسلام، ثم تشدد فيه على بن أبي طالب وعمر بن العزيز لأن كلا منهما جاء إلى الخلافة في ظروف اشتداد التفاوت بين الفقراء والأغنياء. وكان ينهى الناس في خلافته عن التشبه به ويحشهم أن يوسعوا على أنفسهم وعيالهم دون الوصول إلى الترف. ولم يكن عيشه قبل الخلافة كعيشه بعدها. فقد كانت له أموال وعاش في يسر. ثم تخلى عن أمواله بعد الخلافة وجعلها وقفا. وكذلك كان عمر بن عبدالعزيز، أمير متروفاً متنعم من أمراء بنى أمية، ثم تجرد عن أمواله ونعيمه في أيام خلافته. وتروى مصادر الشيعة عن إمامهم الثامن على الرضا الذي كان المأمون قد اختاره وليا للعهد: «لئن صرت إلى هذا الأمر لأكلن الخبيث بعد الطيب، ولألبسن الحشن بعد اللين، ولأتعبن بعد الدعة، (مكارم الأخلاق للطبرسي الابن - إيران/ حصر ١٣١١ هـ ص ٧٣) ونقلوا تعهد مماثل لإمامهم المنتظر عند ظهوره.

ويعم الالتزام الخليفة ونوابه على الأمصار، تبعاً لتعاليم عمر بن الخطاب التي أوجبت على الوالي أن لا يلبس الملابس اللينة الرقيقة، ولا يأكل الطعام الملون المنق، ولا يركب البراذين. وهذه الأخيرة من صنف البغال كانت تربى وتدرّب خصيصاً لأغراض الأرستقراطية، ولا يشمل الالتزام من هم دون هذه الفئة كالقضاة والإداريين والفرسان. إنما يطالبون بمراعاة الاعتدال في الإتفاق الشخصي تبعاً للضوابط العامة للسلوك الإسلامي العادي. ولم تتضمن تعاليم عمر تقنين الأمور الجنسية، حيث

تبيح الشريعة الزواج بأربع، مع التسرى بدون حدود قصوى. وتتفاوت زعماء الإسلام فى مسالكهم تجاه هذه المسألة، فقد كان محمد وعلى ضعفاء أمام المرأة، وكان أبو بكر وعمر معتدلين. بينما اكتفى أبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى بـزوجة واحدة، كما لم يتخذوا جوارى. وتخلّى عمر بن عبدالعزيز عن جواريه فى الخلافة. وكانت له زوجتان قبل ذلك فخيرهما بين الطلاق أو البقاء معه بشروط حياته الجديدة. وينقل عن إحداهما، وهى الأثيرة لديه فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان، أنه توقف عن العلاقة الجنسية طيلة خلافته، وكان فى التاسعة والثلاثين حينذاك. ولعلها من المبالغات التى تصاحب أخبار الأشخاص المتفردين.

زهد الحكام كمبدأ يلزمهم ولا يلزم رعاياهم، فرع كبير من فروع السياسات الإسلامية يتضاعف حجم أهميته فى ظروف نضالنا الراهنة حيث يذهب حكام العربى الحاليين بنسبة ضخمة من موارد البلد تخصص لمصروفاتهم واعتمادات قصورهم وأفراد عوائلهم وعشائهم وحواشيهم وحراسهم مع ما يهرب إلى الغرب للإيداع فى مصارفه المتخصصة بحفظ المنهوبات الكبرى. وهذه المصارف متخصصة أيضا فى الأسرار، مما يجعل من المتعذر بالتمام كشف الأرقام الحقيقية لحسابات حكامنا من الخليج إلى المحيط. لكن ما نشاهده بالعين المجردة يكفى للإعلان أن معيشة هؤلاء الحكام هى من العوامل الأساسية فى الأزمة الاقتصادية لكل بلد عربى. ومرة أخرى أقول: إن زهد الحكام إبداع سياسى ولا علاقة له بالدين، لأن المؤسسة الدينية ثرية وباذخة دائما، ولا هو نمط قديم للحياة لأن أغنياء وحكام الأزمنة القديمة كانوا هم الأكثر ترفا وبلخا فى جميع العصور.

٤ - مبدأ الطاعة المشروطة : منصوص عليها فى الآية ٥٩ / - نساء : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله ورسوله... »، ذلك أن أولى الأمر - الحكام - قد يأمرون بشىء لا يرضاه الناس، فعندئذ يرجعون إلى « كتاب الله وسنة رسوله ». وهى الحكم بين الراعى المسلم ووعيته. فالطاعة إذن مشروطة باتباع الحاكم للشريعة، ومسموح للرعية، أو هو واجب عليها، أن تخلع الطاعة مستندة إلى شريعته. وهو مبدأ يندرج فى باب ما يسمى اليوم « سيادة القانون » المقيدة لسلوك الحاكم والمحكوم. وكان هذا فى عهد محمد وخلفائه الأقربين أما الخلفاء الأمويون والعباسيون فإن فقهاء القرنين الأول والثانى حرّموا طاعتهم. وكان بعضهم يقول: « ما أبالى صليت لغير القبلة أو أطعت سلطانا ظالما ». فالطاعة المشروطة هى من شأن العلاقة بين الحاكم العادل والرعية.

وقد اختلف المسلمون حولها فنص بعض فقهاء القرون اللاحقة على شمولها للحكام الفاسقين وعدم مشروطيتها. وتمسك آخرون بالنص القرآنى فى اشتراط الطاعة: وترك لنا الفريقان تراثين متضارين أحدهما يجعل طاعة الحاكم من فروض الدين عادلا كان أم ظالما، ولا يقيد بها بشروط. والآخر يحرم طاعة الظالم ويجعل طاعة العادل مشروطة. ويتداخل هذا الأخير مع التراث اللقاحى، لكننى خصصته بالكلام من أجل المقارنة مع قاعدة الضبط الحديدى التى سادت فى الحركة الشيوعية وقسكت بها القيادات التى وصلت إلى السلطة لتطبيق على أساسها نظام ديكتاتورية البروليتاريا. وكانت من مظاهر الخلل فى النظام السياسى للدول الاشتراكية لأنها صادرت حق المعارضة المتضمن فى مبدأ الطاعة المشروطة.

إن تراث الإسلام مفيد هنا. لاسيما أن التمسك بهذا المبدأ تموزج في وقائع ومظاهر وأشخاص، ولم يكن فكرة عارية. وقد وجد حكام وقادة التزموا به، ومعارضون حثوا أتباعهم على رفعه في وجه السلطة وفقهاء ومتصوفة أدلجوا له وطبقوه بأنفسهم في علاقاتهم مع ولاية الأمر. وفي المبدأ مع ذلك إشكال يقع في مرجعيته التي تنحصر في القانون الشرعى الملزم للحاكم والمحكوم. ومع التخلّي عن هذا القانون لصالح قانون وضعى لا يزول الإشكال، لأن القانون ليس صيغة ناجزة صادرة عن إجماع، وإنما تعبير عن وجهة نظر وموقف معين. والمعارضة في العصر الحديث لا تقف عند المطالبة بتطبيق القوانين وإنما قد تسعى لإلغائها. والقانون لا يصلح حكماً بين الدولة ورعاياها حتى لو جرى تشريعه من طرف برلمان. إذ المعروف أن القوانين البرلمانية تصدر بالأكثرية لا بالإجماع، مما يعنى وجود قطاع من الشعب غير موافق عليها. وهذه عقدة عسيرة الحل وليس ها هنا موضع بحثها.. وتبقى للمبدأ في شتى الأحوال قاعدته العامة التي تمنع السلطة، كما القيادة، من الاستبداد بقراراتها وتبيح للناس عدم التقيد بما لا يتفق مع حقوقهم أو مع آرائهم من سياسات.. ولو أتيح لى أن أكون عضواً في قيادة حزب شيوعى، وليس غير الحزب الشيوعى من يتصدى للمهام الجليلة، لكنى سعت إلى تعديل مبدأ المركزية الديمقراطية بمبدأ الطاعة المشروطة بدلاً من الاستناد إلى نظرية المطلق والنسبى التى لخصها الشيوعى العراقى ماجد عبدالرضا بلسان الجميع.

الحديث الذى اخترته لإضاءة العنوان لا يتصور صدره عن النبى محمد، إلا أنه ورد في مصادر معتمدة وقديمة - صحيح مسلم، سنن الترمذى، سنن الدرامى، ومُسند أحمد - مما يسجل وطأة الأحداث المبكرة التى عاشها الناس فى أذهان المسلمين. وهناك إضافة على الحديث فى بعض رواياته تقول «فطوبى للغرباء» ترين عليها رؤية صوفية، والمتصوفة الأقطاب عاشوا غربة الإسلام، الذى انفصل عندهم عن العقيدة بإلغاء الواسطة - الوحي - ليكون الصوفى حر فى علاقته بالسماء. وكان أقطاب التصوف غير مؤمنين بالأنبياء، ويكرهون الدولة ورجال الدين، وكانوا مشاعيين فى نظرتهم للأموال ويحبون الفقراء. وكان أحد كبرائهم عبدالقادر الجيللى يتمنى لو امتلك الدنيا حتى يعيد توزيعها على الجياع. وسافر أبو يزيد البسطامى إلى مكة فخرج له إنسان فى الطريق وسأله: أين تريد؟ قال أريد الحج. قال: كم معك؟ قال مائتى درهم. قال: أنا ليس معى ولا درهم وعندى عيال فهل لك أن تعطينى دراهمك وأقت لك فى هذا المكان وتطوف حولى سبع مرات فيكون حجك؟ قال: نعم. وأعطاه المائتين وطاف حوله سبع مرات وعاد إلى بلدته.

بفضل حضوره فى مركز السيادة لا يشعر السلفى بالغربة التى كان يشعر بها الصوفى. وسيعسر عليه من ثم أن يكون أكثر من رجل دين. والتاريخ لا يصنعه رجال الدين، الملحقين على الدوام بمواكب الدولة، وإنما وعى الغربة، الذى فيه تكمن القدرة على الخلق.. وحيث تستمر العصور فى سيرها يستمر الإسلام فى غربته بينما يزداد السلفى قرباً من مواطن السيادة التى تستقر فيها الدول. وبذلك تزداد علاقته بالإسلام تأزماً: فالإسلام غريب، والسلفى مقيم، والإسلام كائن تشرىخى والسلفى يعيش خارج التاريخ، فلا يعود انطباقهما على بعضهما أسهل من انطباق المربع على الدائرة. إن فهم الإسلام بوصفه كائن تشرىخى يعنى فهمه فى غربته. لأن الكائن التشرىخى مرهون بلحظات

فعله المشروطة بالزمن، فهو لا يكون أبدى الحضور إلا فى عين العقيدة. والإسلام يؤخذ بالعقل لا بالتقليد. وهذه قاعدة أجمع عليها المجتهدون وأكدها الغزالي الذى اعتبر العقيدة حجاب. وما يؤخذ بالعقل مش هو الدين، الذى هو موضوع خالص للإيمان. وعندما نسلس العنان لهذه القاعدة فلا بد من الوصول إلى القطيعة مع الإسلام، أى التعامل معه من حيث هو كائن تترىخى، أى كائن غريب، بمعنى غير حى، وغير فاعل كما كان فى عصوره المسماة باسمه. ومعرفة الإسلام فى غربته لا يقدر عليها السلفى لأنها معرفة عقلية، والسلفى محجوب بالعقيدة.. قد يكون الماركسى هو من يقدر على التعاطى مع هكذا غريب إنما بشرط أن يكون قد تلقى الماركسية بالفروندريسة. وهذا شرط قد يكون مخصوص بالماركسى العربى، والشرق أوسطى عموماً، خلافاً للماركسى الصينى. لأن الأخير كان يتعامل مع تراث حى يعيشه بنفسه وغير مقطوع عنه بعدة قرون من الهمجية العثمانية، وهو بالتالى لا يحتاج إلى جهد خارق حتى يعيد اكتشافه.

وقد تم تصنيف الماركسية لا عن طريق عمل عقلى بل من خلال الممارسة الاجتماعية.. أقول هذا أيضاً لأن الماركسية كمنهج علمى لم تصل إلى الصين، إنما وصل إليها ماركس/ الفيلسوف، الإنسانى، الروحانى، ذو الأشواق المشاعية والمبشر بمجتمعات لا تحكمها دول. والماركسى العربى/ المقطوع عن تراثه الحضارى بالهمجية العثمانية، وعن ماركس بعقيدته السوفيتية وتأهيله الغربى/ سوف يحتاج إلى جهد مزدوج يرجع به إلى: ماركس الفيلسوف الإنسانى الروحانى، المشاعى الأشواق، واللقاحى الرؤية، وإلى تراثه الحضارى بما فيه من قيم يحملها الإسلام فى غربته. وستكون تلك وحدها هى بضاعة الإسلام فى العصر الجديد. وهى كما ترى أكثر مما أراده توينبى من الإسلام الذى يختلط عنده بالدين.

هل يسمح لنا الحديث عن تراث الإسلام وقيمه الحضارية بالحديث عن مسلم مغترب؟ هذا يفترض عودة شخصية لاسم بعينه يتحدث بتلك اللغة عينها التى تحدثت بها اللزومات أو تحدثت بها الرازى أو أبو ذر أو حذيان. ولا طريق إليها سوى مذهب الرجعة الشيعى. وإلا فالإسلام الغريب هو علاقة عقلية تجمع ما بين القيم الحضارية للوسط والحياة الحديثة لتحقيق المطالب التى بسطناها فى هذه السطور. وما يثير التساؤل هنا هو الدين. وقد قلت إن الدين يبقى مع زوال الشرائع وتطور المذاهب الفكرية والاجتماعية، وأنه مقطوع الصلة بالتراث، أى أنه ليس من عناصر التكوين الشفافى للإنسان.

وهل يسهم الدين الإسلامى فى التعبئة ضد الغرب؟ تجارب الشيعة تجيز الجواب بنعم، لكن بالشروط التى حدناها، وأوجبها التوافق بين الموقف الدينى والقيم الجماهيرية المتوجهة ضد الاستبداد المحلى والعدوان الخارجى. ويبقى الفعل الأنجع فى عموم الساحة للقيم التى تفعل فى غياب الدين.. إننا نقف دائماً على «شعور إسلامى» يوجه الجماهير فى الأحداث الكبرى للصراع مع الغرب، متكاملاً مع هذه القيم وليس بالضرورة مع فروض التدين، أو «الشعور الدينى». وهذا «الشعور الإسلامى» صار يتقيد أكثر وأكثر بالهوية القومية، فالجماهير العربية تهتاج لعدوان غربى على بلد عربى أكثر مما يحدث لها فى حالة بلد إسلامى. وجماهير ذلك البلد بدوره لا تتحرك ضد هكذا عدوان بنفس وتيرة وتحرك الجماهير العربية. وما تشترك فيه الجماهير المسلمة على اختلاف البلدان هو

تلك القيم الحضارية للإسلام، التي هي في تحليلها الأخير جزء من قيم الشرق، التي تسمح له بالتوحد ضد العدوان الغربي بعيدا عن اختلافات الأديان والقوميات.

الهوامش

(١) وإنى لأشيم على أى حال بارقة أمل فى إنشاء المنظمة العربية لحقوق الإنسان بمبادرة المجاهد الراحل فتحى رضوان، إذ أظهرت الاستعداد لعبور المنافسات الجارية بتعميم الكفاح ضد التنكيل مهما كان المصدر ومهما كانت الضحية. ولأشك أن كفاحها سيكون بعيد الأثر إذا تمكنت من ضمان استقلالها المالى ولم تضطر إلى قبول الابتزاز الذى يفرضه عليه بعض أمراء النفط بالمساومة على العضوية لقاء الدعم بالأموال.

(٢) لا علاقة لهذا المصطلح بالمعانى المتداولة للثقاق فى قواميس الطب والنبات. وافترض أن هذا قد يكون من جذر مشترك قديم جدا مع كلمة «نكاح» لأن النون واللام والكاف والقاف كثيرا ما يقع فيها الإبدال عند العرب فى فصاحم وعاميتهم.

(٣) يرقد هذا المنحى من التصوف تحت طبقة سميكة من خرافات ماسينيون ونيكلسن تفقهن بها كلنا.

(٤) فى كتاب التاوى

كدس الذهب واليشب فلن تقدر على حمايتها
احتجن الثروة والجاه تقترب من الكارثة

(٥) المثال اليسوعى لهذا النظام فى أعمال الرسل، من العهد الجديد، ٣٣/٤ - ٣٧.

(٦) مؤرخ العلم الأمريكى الكبير جورج سارتون: «إن بلادنا قادت العالم فى حقن الفلك. وهذا شئ نفخر به، لكن علينا أن نذكر باللوم منجمينا إذا كنا نريد الشناء على فلكيينا. إن عندنا منجمين أكثر مما عندنا من الفلكيين. انظر:

Ancient science and modern

Nebraska university press 1953, p. 61.

David Mclellan, Marx's Grundrisse Granada Publishing (٧)

مقدمة المترجم London 1979